

الفصل الرابع

التفكير والتعلم المفتوح

- * تمهيد .
- * المقصود بالتعليم المفتوح وعلاقته بالتعلم المغلق والتعلم من بعد .
- * المتعلمون فى نظم التعلم المفتوح .
- * دعم المتعلمين بنظم التعلم المفتوح .
- * التعلم المفتوح والرزمة التعليمية .
- * نظرة تقييمية للتعلم المفتوح .
- * التعلم المفتوح وتطوير تفكير المتعلمين .

إن التعلم المفتوح عُرف وسُمى قبل نشأة الجامعة البريطانية المفتوحة بفترة طويلة، فقد أشارت إحدى طبقات صحيفة بتمان إلى التعلم المفتوح والتعلم من بُعد على أنه: "واحد من أهم التطورات التي حدثت في السنوات الأخيرة في مجال التعليم". وقد كان ذلك في السادس من ديسمبر عام ١٩٢٤.

ومع هذا فإن الفكرة الرئيسية في شكل التعليم بالمراسلة، وجُدت قبل ذلك التاريخ، فلقد قام "إسحق بتمان" بتدريس الاختزال بالبريد في عام ١٨٤٠، وبدأ تدريس اللغات بالمراسلة في ألمانيا في عام ١٨٥٦، كما أصبح التعليم بالمراسلة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من النظم التعليمية المعترف بها في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا. ولقد وجدت في الواقع عدة أرواحات للتعلم المفتوح ظهرت في النصف الأول من القرن العشرين، مثل: خطة دالتون، وتعليم الكبار، والتعلم البرنامجي، وتكنه لوجيا التعليم وغير ذلك من أمثلة أخرى عديدة.

ويستخلص "ديريك رونقري" الملامح الأساسية التي تميز نظم التعلم المفتوح،

والتي من أهمها:

- يتحمل المتعلمون مسؤولية تعلمهم.
- يتعلم المتعلمون بمفردهم أو في مجموعات صغيرة.
- يتعلم المتعلمون بمعدلهم الخاص وفي الأوقات التي تناسبهم.
- التعلم من المواد التعليمية.
- استخدام الوسائط المسموعة والمرئية.
- التعلم الإيجابي النشط بدلاً من التعلم السلبي.
- التقويم الذاتي.
- المتعلم يعتمد على أقل قدر من المساعدة من المعلم.
- دور المعلم يركز بدرجة أكبر على المتعلم الفرد.
- التعلم من أفراد آخرين بالإضافة إلى المعلمين.

أولاً: المقصود بالتعلم المفتوح وعلاقته بالتعلم المغلق والتعلم من بعد:

لخص تورمان ماكينزي* عام ١٩٧٥، مشكلة تعريف التعلم المفتوح، في

الآتي: "٠٠٠ أنه جملة غير دقيقة يمكن أن تحمل العديد من المعاني، ٠٠٠ وتستعصى

التفكير من خلال أساليب التعليم الذاتي
على التعريف ولكننا كعبارة تستحوذ على المشاعر ويمكن أن تستخدم كـشعار
لجمع الأنصار المؤيدين"

ورغم مرور كل تلك السنوات فإنها لا تزال غير دقيقة، وتستعصى على
التعريف، فالتعلم المفتوح يتكون من شيئين مختلفين هما الفلسفة والطريقة:

* الفلسفة: وهي مجموعة معتقدات حول التدريس والتعلم .

* الطريقة: مجموعة أساليب (فنيات) للتدريس والتعلم .

وينشأ كثير من الخلط بينهما فقد لا يدرك البعض أن الفلسفة يمكن تطبيقها دون
استخدام طريقة، وأن الطريقة يمكن تطبيقها دون فلسفة وهذا هو الأكثر شيوعاً .

* التعلم المفتوح : الفلسفة :

إن أكثر المعتقدات التي يوجد حولها اتفاق واسع هي فتح فرص التعليم لأكبر
عدد من الأفراد وتمكينهم من التعلم بصورة أكثر إنتاجية وملائمة لاحتياجاتهم، ويتضمن
ذلك التخفيف من حدة عوائق الإلتحاق وإعطاء المتعلمين قدراً أكبر من السيطرة على
تعلمهم .

ولقد أشار (لويس سبنسر) إلى الأهداف المرغوبة للتعلم المفتوح، فقال:

- التركيز على أهداف المتعلم الخاصة ومساعدته على صياغتها عند كل مرحلة .
- التركيز على خبرة المعلم وبيئته الخاصة، محلية، واجتماعية، وثقافية، ومعتقداته،
ونوع العمل وإمكاناته التي يمكن أن يقدمها للمتعلم .
- الإلتزام بمساعدة المتعلم على تحقيق استقلاليته .

وهذه الأهداف التي تركز حول المتعلم تعكس الاتجاه التقدمي في التربية،
لأنها لا تنطوي على التركيز على المتعلم فقط بما يشكل حافزاً مناسباً لتعلمه، ولكنها
تهدف أيضاً تحقيق غاية التعليم، وهو إعداد أفراد مستقلين قادرين على الاعتماد على
أنفسهم .

* التعلم المفتوح: الطريقة :

إن أهداف (غايات) التركيز على المتعلم يمكن تحقيقها باستخدام طرق مختلفة
ومتعددة وعلى رأسها التعلم المفتوح، وكما هو مشهور فإن التعلم المفتوح يتضمن أن
المتعلم يدرس أساساً باستخدام مواد التعلم الذاتي (الرزمة) ويكون من الضروري في كل
حالة تقريباً إعداد أو تعديل مواد تعليمية خاصة، وقد تتضمن رزم التعلم الذاتي مجموعة
متعددة من الوسائط مثل المواد المطبوعة، وشرائط التسجيل المسموعة، والتلفزيون،

برامج الكمبيوتر، والحقائب العملية التي تستخدم بالمنزل، ويقدم للمتعلمين الذين يستخدمونها مختلف أنواع المساعدة من الأفراد الآخرين، مثل: المعلمين والمرشدين والإداريين. ويتم تصميمها بصورة تساعد المتعلم على التعلم بأقل قدر من المساعدة مقارنة بالتدريس المباشر (وجها لوجه).

ويستخدم المتعلمون المواد التعليمية في أى مكان - المنزل، الكلية، أو مكان العمل أو في أى مكان آخر وقد يستخدمونها بمفردهم أو بصحبة زملاء آخرين.

وتشير دراسات الحالة إلى أن استخدام رزم المواد التعليمية بمفردها لا يكفى فإذا لم تكن دوافع الطلاب مرتفعة، فمن الضروري تخصيص فرد يمكنهم الرجوع إليه عندما تواجههم أى مشكلة، أى أنه من الضروري إضافة نوع من المساعدة التعليمية التي يمكن أن تُخصص لحل المشكلات التي تواجه الطلاب عند دراستهم للمواد التعليمية وكذلك لمزاولة الأنشطة التي لا يستطيعون إنجازها.

وعلى ذلك فالمتعلمون لا يحتاجون فقط إلى رزم المواد التعليمية ولكن أيضاً إلى مساعدة، وبالإضافة إلى ذلك، وبدرجة أو بأخرى فإنهم قد يحتاجون إلى العالم الحقيقي والواقعي، فبيئة المتعلمين في العمل والأسرة والمجتمع من الممكن أن تكون مصدراً خصباً للتعلم، وإهمالها يُعد إهمالاً لوسائل حيوية يمكن أن تساعد المتعلمين في عملية التعلم أو تجعلهم مستقلين.

والسؤال: ما الحدود الفاصلة بين التعلم المفتوح والتعلم المغلق؟

لا يوجد برنامج أو نظام للتعلم المفتوح يمكن القول بأنه مفتوح بصورة كلية أو مغلق تماماً، فالانفتاح غاية، يجب أن نناضل من أجلها، وليس وضعا نتوقع الوصول إليه، ويمكن تشبيه السيناريو التعليمي بمسار متصل يقع عند أحد أطرافه التعلم المغلق وعند الآخر التعلم المفتوح وبين هذين الطرفين تقع نظم التعليم في مكان ما على هذا المسار. ويمكن تحديد هذا الموقع بالسؤال عن ثلاثة عناصر أساسية:

- من الذين يمكنهم الالتحاق بالبرنامج؟ أى مدى السهولة التي تُمكن أى فرد من أن يصبح متعلماً بالبرنامج دون قيود السن، والمؤهل، والتفرغ للدراسة وغير ذلك.
- وكيف يتعلمون؟ أى الحرية في تحديد المكان، والوقت، والسرعة التي يتم بها التعلم، وطرق التدريس التي يتم استخدامها، وطلب المساعدة من أفراد آخرين.
- وما الذي يمكنهم تعلمه؟ منح المتعلمين حرية الاختيار فيما يتعلق بالطرق والأهداف والمحتوى وأساليب التقويم.

والإجابة عن تلك التساؤلات تتيح القدرة على تعرف درجة انفتاح مؤسسة أو برنامج ما للتعلم المفتوح .

وبعد تقديم توضيح للحدود الفاصلة بين التعلم المفتوح والتعلم المغلق، يكون من المهم تحديد العلاقة بينه وبين التعلم من بعد من خلال طرح السؤال التالي:

ما الحدود الفاصلة بين التعلم المفتوح والتعلم من بعد؟

التعلم من بعد هو تعلم يحدث عندما تكون هناك مسافة بين المتعلم والمعلم، ويتم عادة بمساعدة مواد تعليمية يتم إعدادها مسبقاً، ويكون المتعلمون منفصلين عن معلمهم في الزمان أو المكان أو كليهما معاً ولكنهم يتبعون توجيهاتهم .

أما عن الصلة بين التعلم المفتوح والتعلم من بعد فقد قام (رونترى) بتوضيحها ببساطة، بقوله: "إنه إذا كانت فلسفة التعلم المفتوح تتعلق بتحسين فرص الالتحاق والتركيز على المتعلم، فعندئذ، تتضمن الطريقة بعض عناصر التعلم من بعد (مواد التعلم الذاتي)".

ومع ذلك وعلى الرغم من أن التعلم المفتوح عادة ما يتضمن تعلم من بعد، فليست كل نظم التعلم من بعد مفتوحة (إذ من الممكن استخدام الطريقة دون فلسفة). ومن الناحية النظرية فإن التعلم من بعد لا يحتاج إلى أن يكون مفتوحاً تماماً، إذ يشير الواقع العملي إلى أن برامج التعلم من بعد تتضمن درجة من الانفتاح تتعلق بحرية اختيار المكان والوقت وسرعة التعلم، ولكنها قد تكون مفتوحة بحدود مختلفة تعتمد على بعد المتعلمين عن المعلمين، والزملاء، والتجهيزات وغير ذلك من أمور قد تساعدهم على التعلم .

وفى سياق العرض السابق للفروق بين التعلم من بعد والتعلم المفتوح، يفضل البعض استخدام مصطلح "التعليم من بعد" لأنه يتضمن كلاً من التعلم من بعد والتدريس من بعد ولكن، ولسوء الحظ، فإنه لا يشمل كل التعلم من بعد . التعلم من بعد لا يُستخدم فقط فى التعليم بل أيضاً فى التدريب المهنى فى مجال الصناعة وقطاع الأعمال بصفة عامة .

وعندما نتحدث عن تكلفة التعلم المفتوح، من المهم بمكانة التنويه إلى أن الوقت هو المال فى التعليم المفتوح، إذ إن العنصر الأساسى فى تكلفة التعلم المفتوح هو وقت الأفراد، بمعنى:

- * وقت هيئة العاملين الذين ينتجون مواد التعلم، ففي مرحلة الإنتاج - عند إعداد مواد التعلم - يحتاج التعلم المفتوح إلى وقت كبير من هيئة التدريس أكثر مما يحتاجه إعداد التدريس التقليدي.
- * وقت هيئة العاملين التي تقدم دعم ومساعدة للمتعلمين، وهي مرحلة التوصيل أو التوزيع - عندما يبدأ تشغيل البرنامج ويبدأ الطلاب في التعلم - فإن التعلم المفتوح عادة ما يحتاج إلى وقت أقل من الهيئة المساندة مقارنة بالتدريس التقليدي وذلك لأن المتعلمين يدرسون بمفردهم من رزمة مواد التعلم.
- * وقت المتعلمين أنفسهم، ففي برامج التدريب التي تتم داخل المؤسسة عادة ما يكون الجزء الأكبر من التكلفة متضمن في وقت المتعلمين - أي الوقت الذي يكونون فيه بعيدين عن أعمالهم وما ينتج عن ذلك من تكلفة أكبر تتمثل في فقد الإنتاج أو الخدمات التي يقدمونها للمستهلكين وإن كان يصعب تقييم ذلك مالياً بصورة دقيقة ولكن يمكن تقديره بحجم المرتب الذي يتقاضاه الشخص أثناء ساعات التدريب كحد أدنى، ومثل هذه التكاليف غير المنظورة أو الخفية لا تتال الاهتمام الذي تستحقه.

ثانياً : المتعلمون في نظم التعلم المفتوح :

وباعتبار أن التعلم المفتوح هو تعلم يركز بالدرجة الأولى حول المتعلم، فمن المهم التركيز على نوعيات المتعلمين التي يكون من المتوقع التحاقهم بالنظام، وكيفية الحصول على معلومات عنهم بهدف جعل البرنامج المقترح إعداداً أكثر ملاءمة لهم. فالمعلومات التي يتم جمعها حول المتعلمين تساعد مصمم البرنامج على إعداد مواد تعليمية أكثر صلة باحتياجاتهم وتفضيلاتهم، والتخطيط لتقديم خدمات دعم ومساعدة وتوصيل المواد التعليمية لهم بصورة فعالة بمجرد أن يبدأوا في التعلم، وغير ذلك مما يحقق أكبر استفادة من البرنامج التعليمي.

إن المعلومات المطلوب جمعها عن المتعلمين، تتعلق بظروفهم وما قد يتضمنه ذلك من عناصر ديموجرافية، ودوافعهم، وما لديهم من خلفية عن موضوع التعلم وكذلك قدرتهم على الوصول إلى مصادر التعلم.

فمعرفة العناصر الديموجرافية الخاصة بالمتعلمين والتي تشمل: أعدادهم - أعمارهم - النوع (ذكر أم أنثى) - وظائفهم - الإعاقات الجسدية التي قد يعانون منها - أماكن تواجدهم أو إقامتهم، كل ذلك يمكن أن يساعد على إزالة العوائق التي تحول دون تعلمهم وبذلك تجعل البرنامج مفتوحاً أمام أكبر عدد ممكن من المتعلمين.

أما من حيث الدافعية، فيجب التعرف على أهداف المتعلمين، أى: لماذا يتعلمون؟ وهل هم يتعلمون لأسباب مهنية مرتبطة بأعمالهم الحالية أو المستقبلية. أم لأسباب أكاديمية نابعة أساساً من الاهتمام بالدراسة والتعلم من أجل التعلم؟ أو غير ذلك من أسباب اجتماعية أو ذات علاقة بتنمية الشخصية. والتعرف على تلك الدوافع وطبيعتها لدى المتعلمين يساعد معدى البرنامج على التركيز على الدوافع الداخلية - أى الاهتمام بما يتم تعلمه بالفعل وليس نتائج ذلك التعلم كالترقى والحصول على درجة علمية مثلاً - وكذلك الفوائد التى يتوقع المتعلمون الحصول عليها نتيجة تعلمهم - ومدى إمكانية أن يساعدهم ما تعلموه فى أعمالهم وفى حياتهم الأسرية والاجتماعية وفى تنمية شخصيتهم، بل ومساعدة المتعلمين على إدراك أنه قد يكون لديهم أسبابا عديدة للدراسة (شخصية، وأكاديمية، ومهنية) وليس سبباً واحداً فقط. وربما يكون ذلك جزءاً مفيداً فى عملية الإرشاد قبل بدء البرنامج.

والتعرف على ما يمتلكونه بالفعل من معارف ومهارات ترتبط بموضوع البرنامج أو حتى ما يحتمل أن يكون لديهم من أفكار واتجاهات وأحكام مسبقة، يساعد كثيراً فى إعداد البرنامج الذى سيشترون فيه. فعلى الأقل يمكن أن يساعد ذلك على تجنب تكرار ما يعرفونه بالفعل من معلومات ومهارات أو التوصية بدراسات تمهيدية قبل الالتحاق بالبرنامج أو حتى جعل البرنامج يركز على الأخطاء الشائعة والاختلافات فى وجهات النظر.

وبالإضافة إلى ما سبق فإنه يجب أن يتم جمع معلومات عن: أين، ومتى، وكيف سيتعلم المتعلمون، والوقت المتاح لهم، ومن الذى سوف يتحمل مصروفات الدراسة، ومدى قدرتهم على الوصول إلى التجهيزات والوسائط، والحصول على المساندة والدعم من المعلمين والمرشدين والزملاء، فكل ذلك له انعكاساته ومضامينه على عملية التدريس، ومن المهم فى مجال التدريس من بُعد أن يتم الحصول على تلك المعلومات قبل أن يبدأ البرنامج وإلا تضاعلت آثارها وفوائدها المحتملة على عملية التدريس.

ويمكن الحصول على مختلف المعلومات عن طريق اللقاءات المباشرة، أو الاستبيانات، أو الاتصال بالتليفون، أو غير ذلك من الوسائل.

وبالنسبة لما يمكن أن يتم تعلمه، فإن من أكبر التحديات التى تواجه التعلم المفتوح، هو: كيف يمكن الكتابة بإسلوب يجعل مجموعة غير متجانسة من المتعلمين قادرة على التعلم؟

لذلك، فإن أى شئ يمكن تعلمه عن طريق التعليم التقليدى المباشر يمكن أيضاً أن يتم تعلمه من خلال التعلم المفتوح. فإمكانية التعلم باستخدام رزم المواد التعليمية يساعد المتعلمين على تعلم المعلومات، واكتساب المهارات، وكذلك توجيههم نحو للعالم الحقيقى للأشياء والأشخاص ونقده والتفكير فيه.

فالتعلم باستخدام رزم مواد تعليمية تم تسجيلها فى فترات سابقة لا يعد بالضرورة أقل من التعلم داخل حجرات الدراسة بل إن رزمة المواد التعليمية من الممكن أن تقدم خبرات يصعب على معلمى الفصول تقديمها، ووجود وسائط متعددة يتيح فرصة إعادتها واسترجاعها مرة أخرى وفقاً لحاجة المتعلم ورغبته، وهو يستطيع أن يفعل ذلك دون شعور بالخوف أو القلق من زملاء آخرين... وهذه قد تكون بمناوبة ميزة لهذا النوع من التعليم.

وإن كانت هناك حدوداً لما يمكن أن تقدمه الرزمة بمفردها إذ يحتاج المتعلمون من بُعد، فى الغالب، إلى اللجوء بشكل منتظم إلى معلمين إما عن طريق المراسلة أو بالتليفون، أو الالتقاء المباشر وجهاً لوجه.

وفيما يختص بالأهداف، يجب صياغتها فى عبارات سلوكية تحدد نتائج التعلم أو ما يتوقع أن يكون المتعلم قادراً على عمله بعد الانتهاء من دراسة البرنامج، فلك العملية تلعب دوراً خطيراً فى التعلم المفتوح وتسهم فى جعله مفتوحاً بدرجة أكبر. وذلك لأن صياغة الأهداف وتحديدها منذ البداية يساعد على:

- جعل المتعلم قادراً على معرفة موقعه منها وموقفه تجاهها وهل يحتاج إلى مساعدة لتحقيقها أم أنه يعرفها بالفعل وقد حققها من خلال خبرات سابقة.
- يُمكن المتعلم من متابعة تقدمه وسيره فى الدراسة.
- يساعد فى عملية التقويم حيث يتوقع المتعلم أن تكون مهام التقويم مرتبطة بالقدرة على تحقيق الأهداف المنصوص عليها.
- التحديد الواضح للأهداف ومن ثم التقويم يُمكن المتعلم من تحمل مسؤولية تعلمه.

وإن كان البعض يرى أن تحديد الأهداف على هذا النحو يجعل مجموعة مواد التعلم (الرزمة) فى التعلم المفتوح توصف "بالانتشار". فالتحديد الدقيق للأهداف التى يتم

صياغتها مقدماً وفقاً للموضوع الذى يتم تدريسه أو العمل الذى يتم التدريب عليه لن يترك مجالاً للمتعلمين المختلفين لى تكون لهم أهدافهم الفردية التى تعبر عن رؤيتهم ووجهة نظرهم الخاصة بالموضوع .

وفى مقابل هذا النموذج الانتشارى للتعليم الذى تُتخذ فيه القرارات من قبل معدى المواد التعليمية - من أعلى إلى أسفل - يوجد "النموذج التتموى" الذى يبدأ من المتعلم - القاعدة - ويعطى لمعلم التعلم من بُعد دوراً مهماً فى إكمال الرزمة، فلا ينصب الاهتمام على نتائج التعلم فقط، ولكن على عملية التعلم ذاتها، وتكوين علاقة مستمرة مع المتعلم تحقق الاتصال والتفاعل فى اتجاهين، وبما يساعده على الاستفادة من اهتماماته وخبراته السابقة وبشكل يصبح فيه وعى المتعلم، وأسرته، وحياته الاجتماعية جزءاً من مضمون البرنامج، وبما يساعد على تنمية الشخصية القادرة على فهم ذاتها والعالم من حولها .

وإذا كانت أحد الملامح المميزة للتعلم المفتوح هو قدرته على مساعدة المتعلم على اكتساب الاستقلالية، فالمتعلم يكون مستقلاً إلى ذلك الحد الذى يستطيع فيه أن يتخذ قرارات حول: محتوى ما يدرسه والأهداف، وطرق التدريس، والتقويم . فالمدخل التتموى يعمل على تعزيز الاستقلالية وإتاحة فرص الاختيار أمام المتعلم فى تلك الجوانب الأربعة . إذ يمكن التفاوض حتى بخصوص الأهداف بين المعلم والمتعلم وبما ينتج عنه فى النهاية "صياغة عقود التعلم"، فيقرر المتعلمون ما سيدرسونه وما سيتم تقويمهم فيه .

وإن كانت الاستقلالية فى حد ذاتها لها حدود ودرجات، فالطالب قد يشكل أهدافه وفقاً لمصادر التعلم المتاحة من معلمين ومواد تعليمية وغيرها، ويؤثر ذلك على المحتوى، كما أن الطلاب يسعون فى الغالب إلى الحصول على شهادة تكون مستنداً رسمياً يثبت تحصيلهم العلمى، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يصعب أن يكون التقويم موضوعاً للتفاوض وليس مفروضاً على الطلاب، ولذلك من الضرورى الموازنة دائماً بين ما يتطلبه النظام وما يريد المتعلمون أن يتعلموه ويكونوا قادرين على مساعدتهم فى الاتجاه نحو تحقيقه .

وفى هذا الإطار يجب على المهتمين بالتعلم المفتوح أن يعرفوا إلى أى مدى يمكنهم تعزيز استقلالية المتعلم ومساعدته على الاختيار .

إن جعل برنامج التعلم المفتوح يركز حول المتعلم هو من أكبر التحديات التي تواجه التعلم المفتوح. وعلى كل مهتم به أن ينفذ ذلك في إطاره الخاص مع إشارة للمراجع التي يمكن الاستعانة بها في هذا الصدد والرجوع إلى بعض الزملاء والتحاور معهم، وكذلك المتعلمين المحتملين في البرنامج الذي يتم الإعداد له، وذلك في محاولة لرسم نموذج للمتعلمين "الجمهور المتوقع" وانعكاسات ذلك على تصميم برنامج التعلم المفتوح وتوصيله لهم.

والسؤال: ما الذي يمكن تعلمه؟

يتأثر محتوى برامج التعلم المفتوح، بشكل متزايد، بالاهتمامات الصناعية، ولكن ماذا عن المقررات التي تشجع الحصول على المعرفة من أجل المعرفة والتفكير الناقد، والأخلاق، والقضايا السياسية والاجتماعية أو تحدى الوضع القائم؟ كل هذه وغيرها أسئلة فرعية تؤكد أهمية الأولويات الاقتصادية، فالتعلم المستمر مدى الحياة يعد أمراً ضرورياً ومهماً في مجتمع ديمقراطي مفتوح ولا يمكن الحصول عليه من مجرد التعلم من أجل العمل... ومن ثم فإن أحد مكامن الخطر هو أن يكون محتوى التعلم المفتوح موجهاً بقوى السوق واحتياجات أصحاب العمل ليهمل بذلك فئات ليس لها ثقل اقتصادي في المجتمع كالمراة، والأقليات العرقية، والمتعطلين وغيرهم ممن قد لا يجدون فيه ما يشبع احتياجاتهم التعليمية فإذا لم يُستخدم التعلم المفتوح لتعليم هؤلاء الأفراد وتشجيعهم على النقد والإبتكارية بدلاً من التبعية فإنه سيكون مغلقاً.

والسؤال: كيف سيتعلمون؟

ثمة جوانب أربعة تشكل عناصر أساسية للتعلم المفتوح وهي:

- المتعلمون في التعلم المفتوح يدرسون معظم الوقت بمعدلهم الخاص.
- المتعلمون في التعلم المفتوح نادراً ما يتواجدون في مجموعات.
- يستخدم المتعلمون مواد تعليمية تم تسجيلها مسبقاً وأنتجها معلمون لا يعرفون أي شئ عن ظروف حياتهم أو طبيعة عملهم وقد لا يلتقون بهم على الإطلاق.
- يمكن تقديم مساندة من أفراد لم يشتركوا في إنتاج تلك المواد التعليمية.

فمواد المقرر توجه للطلاب كأفراد، ويتحمل المتعلم مسؤولية تعلمه، لذلك من ثم فمن الضروري أن يتوافر لدى المتعلم الدافع القوي والقدرة على التوجه الذاتي نحو التعلم بشكل مستقل. إن مسؤولية الفرد عن تعلمه على هذا النحو جعلت البعض ينكر وجود القوى الاجتماعية ودورها في عملية التعلم إلى ذلك الحد الذي قد يجعل الفرد

يتخذ منها عنراً يكمن خلف أى فشل أو قصور فى تحقيق النجاح . . . ويستتبع ذلك أنه إذا فشل الأفراد فى الحصول على عمل فهذا يكون خطأهم وليس خطأ المجتمع، وخاصة فى ضوء ما يوفره التعلم المفتوح من فرص متاحة فى أى وقت، وفى أى مكان تمكنهم من اكتساب المهارات المطلوبة فى سوق العمل عندما يحتاجون ذلك، ومن ثم تقع عليهم مسئولية عدم المشاركة فى الاقتصاد القومى، وهذا يكون أحد مكامن الخطر، فالتعلم المفتوح، وفق هذا المنطق يشجع على الفردية ومن ثم يجب البحث عن سبل لجعل التعلم المفتوح خبرة تعاونية .

ومن جانب آخر فالتعلم من خلال الرزمة يمكن أن يصبح تعلماً سلبياً خاصة عندما يتم تقويم المتعلم فيما يتعلمه فقط - ويصبح المتعلم غير مستقل، ويبتعد عن خبراته ذات الصلة بالموضوع ويهتم فقط بتشرب الرسالة دون ابتكارية مع التركيز فقط على الأجزاء التى سيتم تقويمها . ويحدث ذلك بصفة خاصة عندما يتم بناء رزمة التعلم بشكل دقيق لا يتيح للمتعمّل تقديم آراء بديلة بناء على خبرته الخاصة وهو ما يؤدى إلى ما يسمى بالنموذج الانتشارى الذى تُحدد فيه المعلومة على أنها سلعة تُوجد بشكل مستقل عن الأفراد، ومن ثم يمكن تخزينها ونقلها (بيعها) على عكس النموذج التتموى الذى ينادى بأهمية تنمية الشخصية المتكاملة وخاصة الجانب المرتبط بالقدرة المستمرة على فهم الفرد لذاته والعالم الذى يعيش فيه . ومن ثم فإن التغلب على خطر الانتشار وتلقين الرأى الواحد يكمن فى إعداد رزم مواد تعليمية تشجع المتعلمين على الوصول إلى المعارف بأنفسهم وربط المعلومات المقدمة لهم بخبراتهم الشخصية .

وتوجد المتعلم بين مجموعة يسمح بربط أفكار الرزمة بإطار معين، ومشاركة الأفراد الآخرين فى التعبير عن آراءهم وخبراتهم، والحصول على تغذية راجعة وغير ذلك من الدخول فى مناقشات تعاونية . وغياب مثل هذه العملية الحية يجعل المتعلمين الذين يتعلمون بمفردهم فى منازلهم يشعرون بالعزلة . . . ويرى البعض أن تواجد المتعلمين معاً رغم أهميته إلا أنه يقيد الانفتاح ويقلل من مزايا قلة التكلفة فى التعليم المفتوح .

أما الوسيط البشرى، الذى يضفى اللمسة الإنسانية على التعليم المفتوح، كما يتمثل فى معلمى التعليم من بُعد والمرشدين، والملاحظين وغيرهم . . . فهناك تساؤلات حول مدى قدرتهم على القيام بأدوارهم الجديدة، فهل يستطيعون تشجيع المتعلمين على

فحص مواد التعلم وربطها بخبراتهم السابقة، وتنمية رؤيتهم الخاصة حول الموضوع؟، وما نوعية هؤلاء المعلمين؟ وما طرق وأساليب تقديم تنمية مهنية لهم؟

وبالإضافة إلى ما سبق فهناك منطقة خطر تتعلق بمعلم التعليم المفتوح، فكما ينظر "أوتو بيتر" إلى التعلم من بُعد على أنه عملية صناعية، أى أنه أصبح ممكناً فقط بفضل إدخال واستخدام المبادئ والممارسات التي تطورت في مجال الصناعة، مثل: تخطيط المشروعات، الإنتاج الكبير لمواد التعلم الذاتي، الرقابة على النوعية، تقسيم العمل والأنومية. فالبندين الأخيرين يشكلان تهديداً على معلم التعليم من بُعد وعلى المتعلمين بالتبعية، فتقسيم العمل يعنى التخصص داخل قوة العمل ٠٠٠ فمعدى المقرر يضطرون إلى أن يشتركوا في مهمة صناعة الرزمة مع عدد من المتخصصين الآخرين مثل المحرين .

ومسمى الصور والرسوم، وتكنولوجيا التعليم وغيرهم ممن لا تكون لهم علاقة اتصال مباشر مع المتعلمين الذين تترك مهمة الاتصال بهم لأشخاص آخرين كالمرشدين والموجهين والمراقبين ممن لا يوجد لهم دور في إعداد مواد المقرر ومن ثم يصبح معلم التعليم من بُعد مغترباً، فكل فرد مسئول عن جزء محدد وليس عن العملية التدريسية كلها . وهذا قد يسبب لهم شعوراً بالعزلة والإحباط، ومن ثم يكون من الضروري تعريفهم بأدوارهم الجديدة، وتنميتهم مهنيًا، وتعليمهم أساليب العمل ضمن فريق وما إلى ذلك .

بعامه ٠٠٠ على الرغم من كل تلك المآخذ على التعلم المفتوح فإن التعلم التقليدي لا يخلو أيضاً من العيوب، وهذا هو السبب في انطلاق التعلم المفتوح الذي لا يزال يمتلك إمكانيات هائلة لتشكيل حياة الأفراد، فهل يمكن التغلب على تلك المخاطر للإفادة من تلك الإمكانيات لجعل التعلم أكثر إنتاجية وإشباعاً لحاجات المتعلمين؟ وهل يمكن تطوير تعليم مفتوح يناسب نوع المجتمع الذي نريد أن نحيا فيه؟ فهذا هو التحدي الحقيقي .

ثالثاً : دعم المتعلمين بنظم التعلم المفتوح :

تتم دراسة المتعلمين في نظم التعلم المفتوح، في الغالب، باستخدام رزم المواد التعليمية، ولكن الرزمة نادراً ما تكفى، فمعظم المتعلمين سيحتاجون إلى مساندة ودعم إنساني من أفراد آخرين لمساعدتهم على التعلم والاستجابة لاحتياجاتهم كأفراد . إذًا، ينبغي مساعدة كل من له صلة بالتعلم المفتوح على:

- * معرفة بعض الأسباب التى تجعل المتعلمين يحتاجون إلى دعم ومساندة.
 - * تحديد بعض أنواع المساندة التى يمكن تقديمها • قبل، وأثناء، وبعد البرنامج التعليمى.
 - * تحديد الأفراد الذين يكون بإمكانهم تقديم الدعم والمساندة.
 - * التخطيط لتقديم دعم ومساندة فى برنامج مقترح للتعلم المفتوح.
- وفيما يلى توضيح للموضوعات السابقة:

(١) أسباب الدعم :

لا يستطيع غير عدد قليل من المتعلمين الدراسة بمفردهم، باستخدام رزمة المواد التعليمية فقط، وذلك لأنهم - سواء أكانوا يدرسون بالمنزل أو فى مراكز التعلم - يحتاجون إلى دعم ومساندة من أفراد آخرين (عنصر إنسانى) وهذا الدعم يجب أن يتم التخطيط له بشكل دقيق عند إعداد المواد التعليمية.

وإن كان تقديم التعلم من خلال الرزم ودون تقديم مساندة للمتعلمين يبدو أكثر جاذبية لمن يريدون تقليل الإنفاق على المعلمين والمدربين، لأن تقديم دعم ومساندة للمتعلمين يمكن أن يصبح مكلفاً من الناحية الاقتصادية. وذلك لأن يتحقق إجرائياً، فالطلاب يمكن أن تصادفهم كل أنواع المشكلات الناتجة عن القلق، وتواجههم صعوبات تعلم عديدة فى أثناء محاولاتهم الدراسة بأنفسهم، ولذلك يحتاجون دوماً إلى مساعدة خارجية.

وتلك المشكلات والصعوبات قد تدفعهم إلى التفكير فى التسرب وعدم استكمال البرنامج، ومن ثم فإن الدعم يكون بمثابة شبكة الأمان التى تحافظ عليهم داخل النظام.

(٢) أنماط الدعم :

ويحتاج المتعلمون إلى أشكال عديدة من الدعم والمساندة وفى أوقات مختلفة •• قبل أن يبدأ التعلم، وفى أثناءه، وبعد الانتهاء من البرنامج التعليمى ••• وهى عملية يمكن أن تختلف من برنامج إلى آخر.

فعلى سبيل المثال: يحتاج المتعلمون إلى مساندة قبل أن يبدأ البرنامج فى التعرف على أهدافهم من الالتحاق بالبرنامج وكيفية تحقيقها، واختيار مواد التعلم المناسبة، ونوع المساندة والدعم المالى والبشرى الذى قد يحتاجون إليه.

أما المساندة التي لها صلة بعملية الدراسة فهم يحتاجون إلى من يعاونهم في: تنظيم أوقاتهم، وتحسين مهارات الدراسة مثل القراءة وتدوين الملاحظات وكيفية التعلم من الوسائط الجديدة والأشخاص الآخرين، وكيفية حل الواجبات والتقدم للامتحانات وما إلى ذلك .

وفيما يتعلق بمحتوى البرنامج الدراسي فإنهم يحتاجون على سبيل المثال إلى: تحديد النقاط الغامضة - الحصول على آراء مختلفة حول الموضوع - ربط المحتوى بخبراتهم الخاصة - تحديد الأجزاء التي يجب التركيز عليها أكثر من غيرها .

وبالإضافة إلى ما سبق فهم يحتاجون إلى العون والمساندة في مجالات أخرى ترتبط بأعمالهم، ومدى فهمهم لنظم التقويم، وأيضاً بطبيعة شخصياتهم وقدرتهم على التغلب على عناصر القلق والصراع الذي قد ينشأ نتيجة لتعدد التزاماتهم ومسئولياتهم في المنزل والعمل، والدراسة بالبرنامج .

والمتعلمون يحتاجون ليس فقط إلى مجرد مساندة عامة ولكن إلى دعم فردي وتغذية راجعة شخصية ترتبط باهتماماتهم الخاصة والفريدة، على أن يكون ذلك صادراً من فرد يعرف عن شخصياتهم الكثير، ويمكنهم الالتقاء به والتحاور معه عن طريق الاتصال الشخصي المباشر أو بالتليفون أو المراسلة، مثل: الموجهون، والمرشدون، والمعلمون، والملاحظون ورؤساء العمل أو حتى الزملاء وغيرهم من المتعلمين الآخرين .

(٣) القائمون بالدعم :

تختلف نوعية الدعم والمساندة التي يمكن أن يقدمها كل فرد من هؤلاء للذين سبق تحديدهم، من نظام إلى آخر، فبعض الكليات قد لا يكون لديها معلمون ومرشدون يعمل كل منهم بشكل مستقل عن الآخر بل إن الشخص نفسه يمكن أن يؤدي كلا الدورين في وقت واحد، كما يختلف المسمى الذي يطلق عليهم من نظام إلى آخر .

وتعتمد طرق وأساليب تقديم الدعم والمساندة للمتعلمين على طبيعة دور العاملين داخل نظام معين، ويعد دور المعلم والمرشد في نظم التعلم المفتوح والتعلم من بُعد من أهم تلك الأدوار وأكثرها شيوعاً . وعادة ما تكون لهم أوارهم التدريسية والتدريبية في نظم التعليم والتدريب التقليدية .

ويختلف دور المعلم من نظم التعلم من بُعد تماماً عن دوره في نظم التعليم التقليدي؛ لأن نظم التعلم المفتوح والتعلم من بُعد تعتمد بالدرجة الأولى على متعلمين

يتحملون مسئولية تعلمهم والتدريس لأنفسهم بمساعدة مواد التعلم الذاتى، ومن ثم فإن التعلم الأساسى يكون قد تم بالفعل والمعلم الذى يقوم بإعادة تدريس تلك الأساسيات مرة أخرى إنما يشجع صفة الاعتمادية فى المتعلمين، تلك الصفة التى تهدف نظم التعلم المفتوح إلى التغلب عليها .

والمعلم فى نظم التعلم من بُعد هو شخص خبير فى مادة تخصصه وبالإضافة إلى ذلك فمن الضرورى أن يكون على معرفة وثيقة بالمتعلمين الذين يتعامل معهم وكيفية مساعدتهم على فهم الموضوع، وأنواع الصعوبات التى قد يجدونها، وأفضل الأساليب لتقديم الدعم والمساندة لهم، وأن يكون لديه القدرة على مساعدتهم على التعلم من رزمة المواد التعليمية ونقدتها ومناقشة الأفكار المتضمنة فيها وربطها بقيمتهم وخبرتهم الخاصة .

ويتخذ التدريس فى نظم التعلم المفتوح أشكالاً عديدة فهو إما أن يتم من خلال لقاءات شخصية مباشرة وجها لوجه أو فى مجموعة يقوم فيها المعلم بدور ميسر يساعد المتعلمين على الاستفادة من خبرات بعضهم البعض، ومع ذلك فمعظم التدريس يتم من بُعد بالمراسلة أو عن طريق التليفون أو إرسال أشرطة تسجيل سمعية للمتعلمين أو تبادل الرسائل عبر شبكات الكمبيوتر . ومن أهم المهام التى يؤديها المعلمون قراءة الواجبات التى يرسلها المتعلمون وتقويمها وكتابة تعليقات بناءة تساعد المتعلمين على التعلم من نقاط ضعفهم والاستفادة من مواطن القوة لديهم .

أما التعلم من خلال عمل المشروع فيشكل حالة خاصة يكون فيها الدعم والمساندة بمثابة الشئ الرئيس الذى يقدمه البرنامج وليس رزمة المواد التعليمية، فإذا كانت هناك مواد تعليمية فى هذه الحالة فإنها تقدم توجيهات حول أداء المشروع وليس معلومات عن المادة الدراسية، والمشروع قد يتراوح بين مجرد قضاء ساعات فى المكتبة إلى عمل بحث ميدانى يستغرق أسابيعاً عديدة . وفى شكله الكامل فإن المشروع سيمكن المتعلم من اختيار الموضوع الذى يريده، والبحث عن مصادر المعلومات المتصلة به، وتحديد أسلوب معالجتها ثم تقديم النتائج للتقويم . ويتميز هذا الأسلوب بقدرته على إكساب المتعلم الثقة بالنفس والاعتماد على الذات، ومع ذلك فليس كل المتعلمين يمكنهم تحقيق الاستقلال الكامل بل إنهم بدورهم يلقون بمطالب كثيرة على المعلمين لمساعدتهم فى كل مراحل عمل المشروع ابتداء من اختيار عنوان الموضوع، وجمع البيانات والتعامل معها، وحتى تقديم النتائج للتقويم . فضلاً على تقديم يد العون

لهم فى التغلب على القلق والإحباط، فإن المعلم يساعدهم على تخطيط وتنفيذ هذا العمل، وقد يتحمل مسئولية تقويم النتائج كذلك .

ويحتاج طلاب التعلم المفتوح، فى العادة، إلى مساندة فى أمور ليس لها علاقة مباشرة بالمادة الدراسية، فقد يحتاجون إلى من يأخذ بيدهم ويشجعهم على البدء بالدراسة، ويساعدهم فى تنظيم أوقاتهم، والتغلب على مشكلات القلق وعدم الثقة بالنفس، والتفكير فى مراحل ما بعد الانتهاء من البرنامج . وتقوم بعض النظم بتعيين مرشدين أو موجهين لتقديم هذا النوع من المساندة للمتعلمين فى مختلف مراحل مسارهم التعليمى، بينما يجعلها البعض الآخر من بين المهام التى يتعين على المعلمين القيام بها وبحيث يكون دورهم فى هذه الحالة دور مزدوج فى النواحي التعليمية، بجانب التوجيه والإرشاد .

وعند تنفيذ التعلم المفتوح فى سياق مهنى، فإن ذلك يتطلب مساعدة المتعلمين على تطبيق ما تعلموه فى أعمالهم، ومن هنا يكون دور رؤساء العمل والملاحظين دوراً حاسماً فى تقديم هذا النوع من المساندة .

وفى مراكز الدراسة التى تكون مكاناً لعقد ورش العمل فى نهاية الإسبوع ويجتمع فيها الطلاب مع بعضهم البعض فى لقاءات دورية منتظمة، يجب أن تكون مجهزة للتدريب العملى، بحيث تضم مكتبات ومعامل، بالإضافة إلى وجود المعلمين والمرشدين، لأن الطلاب يلتقون فيها بأفراد آخرين يقدمون لهم الدعم والمساندة، مثل: مدير المركز وموظفو الاستقبال وأمين المكتبة وغيرهم ممن يكون لهم دوراً أساسياً فى تقديم المعلومات والإرشاد والتوجيه .

ولأن التعلم من بُعد لا يعنى التعلم فى عزلة، إذ بصرف النظر عن أساليب تقديم العون والمساندة بشكل "رسمى"، فإن المتعلمين - غالباً - يحصلون على الدعم بشكل "غير رسمى" من أفراد آخرين من الأسرة والأصدقاء، وزملاء الدراسة وزملاء العمل .

فمن خلال اللقاءات التى تعقد فى المراكز الدراسية يتوافر لمجموعات المتعلمين جواً من المشاركة فى الخبرات وتبادل الأفكار والآراء .

أما أفراد الأسرة وزملاء فيامكانهم إحاطة المتعلم بمناخ مشجع لعملية التعلم، فى حين أن زملاء العمل والاحتكاك بالمهنيين الآخرين قد يشكل مدخلاً مهماً يوفر للمتعلم فرصاً حقيقية لتجريب الأفكار الجديدة فى مواقف عمل حقيقية والحصول على

تغذية راجعة مباشرة عنها . وهنا يجدر التنويه إلى أن استخدام مدخل التعاون مع الزملاء يعتمد على التباحث مع الزملاء ومناقشتهم وتوجيه أسئلة معينة إليهم مرتبطة بالموضوع المعروض فى كل وحدة .

(٤) التخطيط للدعم :

تكشف قضية التعلم المفتوح عن افتراضات متناقضة يعتقها الممارسون فى هذا النوع من التعلم . فهناك من يركزون على الناتج النهائى وحصيلة التعلم ويرون أن مواد التعلم هى التى تقوم بالدور الحاسم فى هذا الخصوص، وإذا كان الدعم ضرورياً فإن هدفه فى هذه الحالة ينصب فقط على مساعدة المتعلمين على تحقيق هذا المنتج .

وعلى النقيض يوجد رأى آخر يرى ضرورة التركيز على العلاقة التفاعلية الخلاقة بين المتعلمين ومن يقدمون لهم يد العون والمساندة، وإذا كانت المواد التعليمية ضرورية فلا بد من تعديلها وتطويرها لتتناسب مع الاحتياجات المباشرة للمتعلم الفرد .

فالفريق الأول يركز على مساعدة المتعلم على تعلم حجم معين من المعرفة، بينما الفريق الثانى يهتم بمساعدة المتعلم على إيجاد معنى لعملية تعلمه، وتكوين قدراته على التعلم المستقل . ومعظم الممارسين فى التعلم المفتوح يقعون عند نقطة ما على الخط الذى يصل بين هذين الطرفين، وغالباً ما يكونوا أقرب إلى أصحاب الرأى الأول، وذلك لأن التركيز على الدعم والمساندة من المحتمل أن يهدد تصور التعلم المفتوح على أنه نوع من التعلم منخفض التكلفة .

وأخيراً، ينبغى التنويه إلى أن معظم المتعلمين، رغم احتياجهم إلى مساندة كبيرة عند بدء برامجهم فى التعلم، فإنهم لا يحتاجون إليها إلى الأبد .

وعليه، إذا كانت هناك اهتمامات أخرى - غير تلك التى سبق الإشارة إليها - حول مساندة المتعلمين بنظم التعلم المفتوح أم لا، فمن الضرورى أن يقوم كل منهم بتدوين ملاحظاته حول ما يبدو مهماً بدرجة تكفى لتذكره فى عمله المكتبى بين المصادر والمراجع المختلفة حول هذا الموضوع وعمله الميدانى فى أثناء مناقشاته للزملاء .

رابعاً : التعلم المفتوح والرزمة التعليمية :

بادئ ذى بدء، تجدر الإشارة إلى أن الرزمة هى عبارة عن مواد تعليمية يتم تصميمها وإعدادها بشكل يجعل المتعلمين قادرين على التعلم منها دون مساعدة كبيرة من المعلم . وقد تكون الرزمة كتاب عمل فقط أو شريط فيديو أو شريط تسجيل صوتى

مع دليل دراسي، أو قرص كمبيوتر أو حقيبة عملية تصاحبها مذكرات مدعمة لها، فأى شيء يتم تخزين معلومات به وتسجيلها مسبقاً يمكن أن يكون رزمة.

وتظهر أهمية رزمة المواد التعليمية والدور الذي يمكن أن تؤديه بالنسبة للتعلم المفتوح، في: مساعدة الممارس في التعلم المفتوح على تحديد نوع الرزمة التي يحتاج إليها الدارسين في البرنامج الذي يعمل به أو ينوي التخطيط له، وفي التعرف على الرزم المناسبة وتقويمها، لتعديل الرزم غير المناسبة في وضعها الحالي، وأيضاً في كتابة دليل دراسي لمساعدة الدارسين على استخدام مواد أخرى. ومن المهم عرض الوحدة في نهايتها لكيفية الموازنة بين التكاليف والفوائد الناتجة عن إعداد رزم (مجموعة مواد تعليمية) جديدة تماماً.

وتلعب الرزمة دوراً مهماً في التعلم المفتوح، إذ دونها ما كان التعلم المفتوح قد أصبح بالقوة التي صار عليها الآن، فالرزمة تدعم جانباً أو أكثر من الجوانب الرئيسية للإفتتاح، مثل:

- * التعلم دون الاضطرار إلى التواجد في حضور معلم أو متعلمين آخرين.
- * التعلم في الزمان والمكان الذي يختاره المتعلم.
- * قدرة المتعلم على اختيار تتابع وتسلسل عملية التعلم.
- * قدرة المتعلم على تقويم تقدمه الدراسي.
- * تنمية القدرة على الاعتماد على الذات والتعلم المستقل لدى المتعلمين.

ولا يشترط أن تشتمل الرزمة على أكثر من وسيط، رغم أنها غالباً ما تكون كذلك، وكل ما يجب أن تحتوي عليه الرزمة هو تدريس المعلم، والفرق الأساسي بين الرزمة والمصادر التي يستخدمها المعلمون في التدريس المباشر بحجرات الدراسة، كالكتب الدراسية وغيرها، هو أن الرزمة يتم إعدادها وتصميمها لتحقيق هدف معين لمتعلمين بعينهم ولتحقيق أهداف خاصة وكفاءات محددة، وإذا كانت تتضمن أكثر من وسيط فإنه ينبغي أن يكون لكل وسيط دور "خاص" به يؤديه في العملية التعليمية. وإذا كان هناك بنداً أو وسيط "واحد" فيكون من المتوقع أن تقوم الهيئة المساندة من معلمين ومرشدين وغيرهم بمساعدة المتعلمين بطرق معينة.

وإذا قام معدو الرزمة بتضمين مصادر موجودة مثل الكتب الدراسية أو الفيديو فإنه يجب أن يتم تعديل تلك المصادر وفقاً لحاجة المتعلم (الزبون) عن طريق إضافة دليل دراسي يساعد المتعلمين على ربطها باحتياجاتهم الخاصة.

وبالنسبة لما ينبغى أن تقدمه الرزمة، يجب على معد الرزمة أن يضع فى اعتباره أنه يقوم بتصميم مواد تعليمية لمتعلمين سوف تكون فرص التقاءهم بالمعلم أقل مما يحدث فى التعليم العادى، لذا فإن الرزمة يجب أن تقوم بالتدريس بذاتها، وهذا يعنى القول بأنها يجب أن تقدم كل ما تستطيع لمساعدة المتعلم على التعلم كما لو كانت معلماً متواجداً فى داخل المادة المطبوعة، فالرزمة التى يتم تصميمها للمتعلمين جيداً سيكون بإمكانها تقديم ألواناً عديدة من المساعدة للمتعلمين من ذلك النوع الذى يتوقعونه من المعلم أو المدرب الجيد فى قاعات الدراسة النمطية.

ويستخدم معدو مواد التعلم المفتوح (الرزم) أساليب فنية لمساعدة المتعلمين على التعلم، وتلك الفنيات يمكن رؤيتها بوضوح فى كتب التعلم المفتوح المطبوعة وأدلة الدراسة، كما أنها تدعم أيضاً التدريس الكفاء من خلال المواد السمعية والمرئية والتدريس بمساعدة الكمبيوتر.

وتلك الفنيات التى تشكل "سر الصنعة"، يمكن تلخيصها فى الآتى:

- * التعبير عن الأهداف بوضوح.
- * توجيه النصح للمتعم حول كيفية دراسة مواد التعلم.
- * استخدام أسلوب ودى جذاب غير رسمى فى الكتابة (أسلوب المحادثة).
- * استخدام كلمات قليلة فى كل صفحة (أو على الشاشة).
- * تقديم أمثلة وفيرة من واقع الحياة لتجسيد الأفكار المعروضة فى الرزمة.
- * الإشارة إلى تعليقات مقبسة من متعلمين آخرين.
- * استخدام الأشكال التوضيحية عندما يكون ذلك أفضل من التعبير باستخدام الكلمات والألفاظ.
- * استخدام رؤوس موضوعات تساعد المتعلم على تحديد طريقه فى عملية التعلم.
- * تحقيق الربط والتكامل مع الوسائط الأخرى فى الموضع المناسب.

ومن المهم التنويه إلى أن الأهداف لا تقتصر على كتب التعلم فقط ولكن المتعلمين يحتاجون إليها بنفس القدر عند استخدامهم لأشرطة التسجيل السمعية أو مشاهدة الفيديو أو حتى القيام بأداء ممارسات عملية، وكذلك عند التدريس بمساعدة الكمبيوتر إذ يجب أن يكونوا قادرين على الإجابة عن سؤال مثل: ما الذى يجب أن أكون قادراً على عمله نتيجة لهذا؟

والأنشطة تعد من أكثر الملامح وضوحاً في مواد التعلم المفتوح وتأخذ أشكالاً متعددة مثل أسئلة تقويم ذاتي أو مقترحات تدعو المتعلمين لعمل شيء ما يكون الهدف منها مساعدة المتعلم على التعلم من خلال العمل والاستفادة من خبراته الخاصة والحصول على معلومات لا تستطيع الرزمة تقديمها له كما أنها في نفس الوقت تُعد تدريباً على تطبيق الأهداف المهمة ومتابعة التقدم في الدراسة وتحديد نقاط القوة ونقاط الضعف .

وعلى صعيد آخر، يجب توجيه الممارسين في التعلم المفتوح إلى معرفة كيفية اختيار أو كتابة مواد التعلم المفتوح، وفحص دور الأنشطة بها، وعلاقتها بالأهداف، مع توضيح أهميتها من وجهة نظر المتعلمين، وكيف يزيد اهتمام المتعلمين بأداء تلك الأنشطة وبذل محاولات جادة لتنفيذها (مثل تقديم نتائج معينة لمعلميهم أو مراقبيهم) .

أما التغذية الراجعة فهي تقديم إجابة أو تعليق يساعد المتعلم على التأكد أو إعادة التفكير في الاستجابة التي قام بها، وتقوم بدور مهم في مساعدة المتعلمين على تقويم ما تعلموه، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأنشطة التي تقدمها الرزمة . فقد لا يميل المتعلمون إلى قضاء المزيد من الوقت في الأنشطة إذا لم يتم تقديم تغذية راجعة عن طريق بعض التعليقات عليها، وإن كان لهذه التعليقات شروطاً . . . إذ يجب مراعاة ألا تكون هذه التعليقات مكتفة بشكل يجعل المتعلمين يركزون جهودهم في قراءة تلك التعليقات وتجاهل الأنشطة ذاتها . وقد تكون الأنشطة هي مجرد توجيه المتعلم نحو إجراء مناقشات مع زملاء أو أفراد آخرين .

وبالنسبة لفنيات الكتابة الأخرى، فتتمثل أهمية استخدام الأمثلة في تجسيد الأفكار الموجودة بالرزمة وربطها بالحياة الواقعية، كما تستخدم الإشارات والرموز لتوجيه المتعلمين إلى نوع مواد التعلم التي يكونوا على وشك استخدامها والتعامل معها، وبما يحقق التكامل بين الوسائط المختلفة، وأهمية أن يكون ذلك جزءاً من دليل الدراسة الذي تقدمه الرزمة حتى يكون المتعلم على علم به منذ البداية .

ويمكن تشبيه التعلم من رزمة المواد التعليمية وفقاً للأسلوب السابق على أنه كالتعلم على يد معلم جيد يسير مع الدارس خطوة خطوة، أو معلم خصوصي يقوم بالتدريس لطالب واحد يخبره منذ البداية بما يفترض أن يستخلصه من جلسة للتعلم ثم يشرح بعد ذلك الموضوع بوضوح باستخدام الأمثلة وطرح أسئلة التقويم الذاتي وغيرها

مما يمكن المتعلم من متابعة مدى فهمه واستيعابه للأفكار التى نوقشت مع التعليق عليها .

وما تقدم أسلوب مشتق أساساً من مبادئ التعلم البرنامجى وخاصة النموذج التفرعى منه، ويستخدم هذا الأسلوب عندما يكون الهدف مساعدة المتعلم على إتقان كم معين من المعارف والمعلومات ويفترض أن يتم التعلم نتيجة تفاعل المتعلم مع الرزمة . ويجدر التنويه إلى وجود أسلوب آخر للتدريس فى نظم التعلم المفتوح ويطلق عليه "دليل العمل الانعكاسى" أو الناقد الذى يفترض أن التعلم المهم سيحدث بعيداً عن الرزمة، والمواد التعليمية المقدمة فيها تكون بمثابة موجهات للعمل فى مكان آخر وفى مواقف حقيقية وربما مع أفراد آخرين، ولا يكون الهدف جعل المتعلم يتقن كما معيناً من المعارف، ولكنه يهدف ممارسة بعض مهارات وكفاءات العملية ومن ثم فالكتاب فى هذه الحالة أقرب ما يكون إلى مجموعة تعليمات توجه المتعلم إلى أداء عمل معين وتتطلب منه أن يفكر بأسلوب ناقد فى: لماذا، وكيف يفعل ما يفعله، عندما يقوم بتقويم النتائج؟

ويبدو أن هذا الأسلوب قام على أساس عمل المشروع بالجامعة البريطانية المفتوحة . وحيث يتمثل الشكل النهائى "لدليل العمل" فى أن تقدم الرزمة للمتعلمين كيفية عمل مشروع مستقل فى بعض المقررات، وقد يتضمن ذلك توجيهات حول كيفية اختيار الموضوع، ومصادر البيانات، وفنيات التحليل، وأشكال التقارير، ودور المعلم، ولكنها قد لا تحتوى أى شئ عن جوهر ما يجب تعلمه، فالجوهر يكون فى العالم الحقيقى ودنيا الواقع، ويجب على المتعلم أن يجمع المعلومات بنفسه .

وبرامج التعلم المفتوح المطولة تحتوى على كلاً من الأسلوبين أى التدريس من خلال رزمة المواد التعليمية وأدلة العمل فى الوقت نفسه، ليكون من الضرورى فى هذه الحالة توضيح كيفية استخدام الأسلوب المناسب فى الموضع المناسب .

وحيث أن اختيار الرزمة من أول القرارات التى تتخذها نظم التعلم المفتوح، لذا ينبغى توضيح كيفية الحصول على رزمة ثلاثم المتعلمين . ويمكن تحقيق ذلك، عن طريق ثلاثة أساليب رئيسة، وهى:

- * استخدام رزمة تعلم مفتوح موجودة بالفعل .
- * الاعتماد على مواد تعليمية متاحة ولكنها ليست معدة للاستخدام فى التعلم المفتوح (مثل الكتب الدراسية أو أشرطة الفيديو) .

* التخطيط لإعداد رزمة من البداية وفقاً لحاجات المتعلمين .

وبعامة، إن استخدام رزمة تعلم مفتوح موجودة بالفعل يُعد من أيسر الطرق وأقلها تكلفة للبدء في تشغيل برنامج للتعليم المفتوح وإدارته، بشرط أن يكون هناك شخصاً آخر قد قام بالفعل بإعداد رزمة مناسبة يمكن استخدامها .

أما الاختيار الثاني فهو اعتماد الفرد في برنامجه التعليمي على مواد تعليمية لم يتم إعدادها للتعليم المفتوح، وهذا الاختيار أسهل نسبياً وأقل تكلفة مقارنة بالاختيار الأخير الذي يتضمن إعداد رزمة من البداية، والذي يمكن اعتباره - رغم صعوبته - أنسب الأساليب لأعداد مواد التعلم المفتوح التي يتم استخدامها، وذلك لما له من مزايا عديدة مثل: ملائمتها للاحتياجات المحلية، سهولة تحديثها، كما أن هذا الاختيار يكون ضرورياً في حالة وجود حاجات خاصة جداً للمتعلمين مثل التدريب على أعمال معينة داخل مؤسسة معينة، وإن كان التعاون مع مؤسسات أخرى ييسر عملية الإعداد ويخفض من التكلفة .

ومع ذلك يظل من الحكمة دائماً استخدام رزم جاهزة قام بإعدادها متخصصون، فذلك يكون مناسباً بالنسبة لإدخال الموارد المادية والبشرية وتركيزها في تقديم نظم الدعم والمساندة للمتعلمين .

ومن المهم، تعريف المتعلمين توجيهات حول كيفية اختيار رزمة جاهزة ملائمة وكيفية فحصها ومعايير التقويم التي يجب إتباعها للتأكد من ملاءمتها للجمهور المستهدف، والأهداف، والوسائط المتاحة، وتكلفتها والفوائد المحتملة، ومقارنتها بالبدائل المتوافرة، وكيفية تعديلها لتصبح مناسبة وذلك عن طريق إضافة دليل دراسي لتوجيه الدارسين نحو استخدامها، وتضمين أمثلة محلية، وإضافة أجزاء قد لا تكون متضمنة بها، أو تحديث أجزاء أخرى، أو وسائط تعليمية جديدة .

وعند استخدام الرزم الجاهزة يكون من الضروري مراعاة حقوق النشر والتأليف المتعارف عليها في هذا المجال .

وتنتهي الرزمة بأنشطة العمل المكتبي والميداني، بحيث ترتبط بما بدلت به الوحدة . ويجدر التنويه إلى أنه إذا كانت الرزمة تفتح جانباً أو أكثر من جوانب التعلم فإنها تغلق جوانب أخرى، حين تستخدم كوسيلة للتلقين وفرض الرأي الواحد دون إعطاء أى فرصة للمتعلم لكي يطور وجهة نظره الشخصية حول الموضوع، وذلك يحرمه من استقلاليته ويجعله في موقف سلبي . وتوجد طرق عديدة لتجنب تلك المخاطر

أو تخفيفها إلى أدنى حد ممكن، عن طريق تقديم آراء ووجهات نظر متعددة ومختلفة، وأن يُطلب من المتعلم فحص تلك الآراء ويقارنها بوجهة نظره الشخصية، وفرض الواجبات ووضع تأكيد أكبر على عمل المشروعات، وكل ما من شأنه أن يقلل من الاعتماد على رزمة المواد التدريسية.

خامسا : نظرة تقويمية للتعلم المفتوح :

فى ضوء تعريف التقويم بأنه "تجميع، وتحليل، وتفسير معلومات حول أى جانب من برنامج تعليمى وتربىي، كجزء من عملية معترف بها للحكم على فاعليته وكفاءته وأى مخرجات أخرى قد تنتج عنه".

يمكن أن تتمثل أبعاد تقويم التعلم المفتوح، فى الآتى:

- * تقويم برامج التعلم المفتوح بصفة عامة، وأيضاً كحالات خاصة.
 - * تخطيط وتنفيذ عملية التقويم لجانب معين من أحد برامج التعلم المفتوح القائمة بالفعل.
 - * وضع استراتيجيات لتقويم برنامج جديد للتعلم المفتوح تقوم بالإعداد له.
- وتوجد أسباب عديدة سياسية، وإدارية وتعليمية تجعل من الضرورى إجراء التقويم. فإذا كان التعلم المفتوح مدخل تجديدي، فهناك حاجة إلى التقويم لإقناع الناس بالبرنامج ومدى جدواه ومن ثم الحصول على مصادر للتمويل. وعندما يبدأ البرنامج فى العمل فهناك حاجة للتأكد من أنه يسير فى الخط المرسوم له وهو ما يسمى بالمتابعة، وبالإضافة إلى ذلك فهناك أسباب تعليمية تدعو إلى تقويم البرنامج من أجل تحسين نوعيته وتعظيم استفادة المتعلمين منه، وذلك عن طريق اقتراح تعديلات فى البرنامج أثناء تنفيذه.

وعند التخطيط لعملية التقويم يكون من المهم تحديد أطراف أو أفراد آخرين يهتمون بالتقويم ويتأثرون بنتائجه للحصول منهم على معلومات ومناقشة الخطط معهم، فهم سيحتاجون إلى معرفة نتائج هذا التقويم لمساعدتهم فى أداء أعمالهم مثل:

- * معدو البرنامج ومصممو المواد التعليمية الذين يريدون معرفة ما إذا كان البرنامج يؤثر مشكلات أم لا.
- * المديرين الذين يريدون معرفة بيانات تمكنهم من الحفاظ على سير البرنامج بالكفاءة المطلوبة.

* الأجهزة التمويلية التي تريد أن تتأكد من أنها ستحصل على عائد من المال المنفق على البرنامج.

* الطلاب والمعلمون والمرشدون الذين يهتمون بأن تؤخذ آراؤهم في الحسبان.

وحيث أن مؤشرات الأداء هي "الأشياء التي نريد تجميع بيانات حولها"، توجد مجموعة كبيرة من الأشياء التي يمكن جمع معلومات حولها والتي يكون من المهم الوعي بها، وعلى القدر نفسه من الأهمية، حسن الانتقاء منها، فجمع المعلومات يكلف الجهد والوقت والمال، كما أن المعلومات الزائدة قد تشكل عبئاً كبيراً وتؤدي إلى ما يُطلق عليه بـ "شلل التحليل".

ويمكن تقسيم مؤشرات الأداء التي توجد حاجة إلى جمع بيانات حولها إلى مجموعتين: مجموعة ترتبط بعملية التدريس والتعلم ومجموعة تتعلق بالمنتجات أو النتائج.

أ - جوانب تتعلق بعملية التدريس والتعلم :

- التسجيل / التسرب .
 - عدد مرات استخدام التجهيزات .
 - كيفية استخدام رزمة المواد التعليمية .
 - العبء الذي يتحمله المتعلمون .
 - أنشطة التنمية المهنية لهيئة العاملين .
 - مدى استجابة العاملين للأمر والأحداث غير المتوقعة .
 - المشكلات التي يواجهها المتعلمون .
 - المشكلات التي يواجهها المعلمون والمرشدون والموجهون وغيرهم .
 - أساليب عمل الدارسين والعاملين من هيئة الدعم والمساندة معاً .
 - أساليب تعديل البرنامج .
 - اتفاق الممارسة العملية مع فلسفة البرنامج .
- ب - جوانب مرتبطة بالمنتج (المخرجات):
- شعور المتعلمين وغيرهم تجاه البرنامج .
 - ما تعلمه المتعلمين بالفعل (كفاءة - معرفة) .

- الأثر على أداء المتعلمين فى العمل .
- تأثير البرنامج على الذكور والإناث بطرق مختلفة .
- الكلفة / الفاعلية .
- قبول الجهات الخارجية .
- كشف البرنامج عن احتياجات جديدة .
- آثار البرنامج طويلة المدى على المنظمة .
- اتفاق المخرجات مع الفلسفة التربوية السائدة .

ومن الواضح أن بعض تلك الجوانب يكون من السهل تقويمها دون غيرها . وفى كل الأحوال يجب أن يركز التقويم على قدرة المشروع على تحقيق أهدافه، والأهداف إما أن تكون عامة أو خاصة أو مرتبطة بمهام محددة أو أهداف تنظيمية، وكلها يجب أخذها فى الحسبان عند التقويم .

وتوجد استراتيجيتان أساسيتان فى هذا المجال تختلف كل منهما عن الأخرى فى نوع البيانات التى يتم جمعها وأساليب جمعها . الأولى: تهتم بقياس المدى الذى يكون فيه المشروع قد حقق أهدافه التى تم تحديدها مسبقاً ومن ثم فهى استراتيجية تهتم بالتقويم الرسمى للمتعلمين، والتحليل الإحصائى لنتائج الاختبارات واستبيانات الاتجاهات، أى أنها بمثابة مدخل كمي للتقويم، بينما الاستراتيجية الثانية مدخلها اجتماعى أنثروبولوجى يركز على ملاحظة المشارك، أى أنه مدخل كفى يؤكد الملاحظة والمناقشة والحوار .

وتختلف الاستراتيجيتان أيضاً فى محور تركيزهما، فبينما تطرح الأولى سؤالاً مضمونه . . "هل المرامى تم تحقيقها؟، فالثانية تسأل عن . . "ما الذى يحدث؟" .

ولا يمكن القول بأن الأولى صحيحة والثانية خطأ أو العكس، فإحدهما كمية والأخرى كيفية، وتساعدان على تقويم كل الجوانب المختلفة للبرنامج، فالحقائق والأرقام تكون وثيقة الصلة بالموضوع وكذلك آراء الناس ومشاعرهم، ومن ثم يكون من الأفضل تبنى استراتيجية مختلفة تجمع بين الإثنين فى وقت واحد .

وتتمثل كيفية جمع البيانات، فى الآتى:

* الجمع الموسمی للبيانات :

يمكن أن يتم جمع البيانات بشكل موسمی لأشياء تحدث وتجذب اهتمامنا ويجب أخذها في الاعتبار، مثل وجود دارسين يتسربون من البرنامج، أو دارسين بدأوا الدراسة دون إرشاد كاف، أو ملاحظة أن التجهيزات الموجودة في مراكز التعلم لا تفي بالحاجة إليها، وغيرها مما قد يشد انتباهنا أو ينبهنا إليه الدارسون والمعلمون أو أي فرد آخر .

* الجمع النظمی للبيانات :

ولكن إذا أردنا التقويم بصورة نظمیة فإنه يجب أن يكون جمع البيانات أكثر من مجرد رد فعل للمعلومات التي تحدث في طريقنا، وتوجد عدة طرق لجمع البيانات لعل من أهمها:

- مراجعة وثائق البرنامج: وتشمل كل ما يكتب حول غايات البرنامج وأهدافه ومبرراته ومراجعة محتوى ومضمون مواد التعلم المختلفة، مطبوعة ومسموعة ومرئية .
- مراجعة الأدبيات وثيقة الصلة بالموضوع: مثل دراسات الحالة والدراسات السابقة لمعرفة ما أشار إليه الآخرون حول البرنامج .
- مراجعة السجلات والإحصاءات الروتينية: مثل البيانات التي تجمع عن المتعلمين، والعاملين، والأجهزة واستخدامها والتسويق، وأوقات اللقاءات الدراسية وغير ذلك .
- مراجعة نتائج تقويم الدارسين: سواء أكان تقويم مستمر أم في نهاية البرنامج، قبل الالتحاق بالبرنامج أم بعد ذلك، عملية أم شفوية، وملاحظة أدائهم في مكان العمل، فمثل تلك البيانات ذات أهمية حيوية ليس فقط في تحديد ما تم تعلمه، ولكن أيضاً في فحص جوانب الضعف في العملية التدريسية .
- الملاحظات: ملاحظة الدارسين في المراكز الدراسية أو أماكن العمل ويمكن أن تكون الملاحظة رسمية أو غير رسمية .
- المناقشة: وذلك عندما يسمح الموقف بملاحظة المتعلمين أو الهيئة المساندة للتعلم وإمكانية التحدث معهم وتداول حول ما يعتقد الآخرون إنه مهم .
- المقابلة: وهي محادثة لها هدف وتبدأ بالحصول على ردود أفعال الأشخاص تجاه القضايا موضع الاهتمام وهي قد تكون منظمة أي من خلال بنود استبيان يُعد

خصيصاً لهذا الغرض، أو شبه منظمة تدور حول أسئلة رئيسة، أو ربما لمجرد تشجيع الآخرين على التعاون.

- المناقشات الجماعية / قاعات البحث (السيمينارات): وتساعد على الاستفادة من آراء أطراف عديدة، وهو أسلوب منخفض التكلفة يساعد على الحصول على أكبر قدر من المعلومات فى وقت قصير.

- الاستبيانات: وتلعب الاستبيانات دوراً مهماً فى تجميع الآراء والخبرات وردود الأفعال، خاصة فيما يتعلق بالعملية التعليمية، وتعتبر ضرورية فى تقويم أى برنامج للتعلم من بُعد.

- سجلات التعلم اليومية وخطط عمل المتعلمين: لجعلهم متضمنين فى عملية التقويم. ويوجد نوعان من التقويم: تقويم تكوينى وتقويم تجميعى.

أ - التقويم التكويني: ويهتم بجمع معلومات يمكن أن تستخدم لتغيير المشروع أثناء تنفيذه.

ب - التقويم التجميعى: ويستخدم بيانات التقويم لإصدار حكم على المشروع بمجرد اكتماله.

وفى الواقع قد يبدأ التقويم حتى قبل أن يبدأ المشروع وقد يكون ذلك فى شكل دراسة جدوى لمعرفة ما إذا كان المشروع يستحق البدء فيه أم لا، وفى نظم التعلم المفتوح فإن معدى المواد التعليمية غالباً ما يقومون بتقويم تلك المواد قبل استخدامها فى البرنامج بهدف الحصول على ردود أفعال أفراد يشبهون أولئك الذين سوف يستخدمونها فى البرنامج مستقبلاً.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن معظم البيانات التى تستخدم حتى فى التقويم التجميعى يتم جمعها فى أثناء المشروع، وقد يُستخدم بعضها فى التقويم التكويني. ويجب التخطيط مبكراً لجمع البيانات واستخدامها بحيث يكون ذلك التخطيط مرناً يبدأ مع بداية المشروع ويتطور معه، وقد تكون هناك حاجة لوضع نوع من الاستراتيجية (مثل: لماذا، ماذا، كيف، ومتى يتم التقويم ... إلخ؟) من البداية، وذلك حتى يمكن الاستفادة من التقويم فى كتابة التقارير واتخاذ القرارات.

التنمية المهنية للعاملين :

لا يكفي أن تكون هيئة العاملين مساندة للمشروع ولكنها تحتاج إلى خبرة ومهارات فى التعلم المفتوح ومن ثم تدريب أو تنمية مهنية وفقاً لطبيعة دور كل منهم، فمعدى مواد التعلم يحتاجون إلى مهارات تختلف عما تحتاج إليه الهيئة المساندة للمتعلمين على سبيل المثال، ومن ثم وكنقطة أساسية للتخطيط للنظام يجب تحديد الكفايات المطلوبة والبحث عن الأفراد الذين تتوافر لديهم هذه الكفايات، ويمكن معرفة تلك الكفايات وعناصرها من خلال الأدبيات المنشورة فى هذا المجال، إذ تقدم جهات عديدة توصيف لعمل المعلم، أو المدرب، مثل: اختيار مواد التعلم، وتعديلها، وتقديم توجيه وإرشاد للطلاب، والحصول على تغذية راجعة منهم، وحفظ السجلات، وتقديم مساندة للطلاب ويمكن تقسيم كل منها إلى عدة عناصر .

فالكفايات المنشورة تقدم قائمة بالمهام الممكنة، وإن كانت لا تكفى، ومن ثم ينبغى السعى لإكساب العاملين بمنظمة معينة مهارات مرتبطة بها، كما أنهم يحتاجون إلى مساعدة لتحقيق تحول أساسى فى اتجاهاتهم حتى يعملون بكفاءة فى أدوارهم الجديدة وذلك بالإضافة إلى العناصر الخاصة بنظام معين ومدى تأثيرها على التنمية المهنية للعاملين به. بعامه من الضرورى إكسابهم كفايات جديدة ومعلومات عن:

- * المتعلمون باعتبار أن طبيعة النظام تتركز حول المتعلم وهى مهمة ليست باليسيرة خاصة فى حالة تنوع الجمهور .
- * مهارات التعامل مع الآخرين كالعاملين فى المجالات الأخرى داخل المنظمة .
- * مهارات الاتصال، فالمعلم الذى يؤدى التدريس بشكل جيد فى النظام التقليدى المباشر وجهاً لوجه لا يمكن التنبؤ بشكل تلقائى بأنه سوف يقوم بالتدريس الجيد من خلال المواد المطبوعة وكتابة التعليقات أو التعليم من خلال التليفون فهذا يضيف مطالب جديدة فى بعض المواقف .
- * القدرة على العمل التعاونى ضمن فريق .
- * مهارات إدارية، فتشغيل فريق من المتخصصين يُلقى بمطالب غير عادية على المديرين، مثل: تعيين الأعضاء، وتحديد المهام والمسئوليات، والتدريب، وتعزيز القيم الإيجابية وتشجيع الابتكارية والفريق الناجح يحقق التوازن بين الاستقلالية الفردية والمسئولية الجماعية .

* مداخل التنمية المهنية :

توجد طرق وأساليب عديدة لتنمية معارف واتجاهات ومهارات العاملين، ومن

أهمها:

- * التعلم فى موقع العمل بمساعدة مراقب يلاحظ الفرد ويعلق على أداءه.
- * عقد اجتماعات بشكل منتظم.
- * ورش عمل يديرها أفراد لديهم خبرة.
- * ورش عمل يديرها خبراء من الخارج.
- * رزم تعلم تتضمن معلومات وتفاصيل حول النظام، مثل: توصيف العمل به، ودراسة حالة ... إلخ.
- * رزم تعلم مفتوح تشتمل على مساندة المتعلمين.
- * الالتحاق بنظام للتعلم المفتوح، وبما يساعد على رؤية ذلك النظام من وجهة نظر المتعلم.

ويمكن القول بصفة عامة أنه على الرغم من أن التنمية المهنية فى موقع وأثناء العمل هى من أكفأ الطرق إذا كانت متكاملة مع العمل، فإن جو العمل، ولسوء الحظ، عادة ما يكون متوتراً سريع الإيقاع. فهناك الكثير مما ينبغى عمله، والتزام بمواعيد صارمة، وضغوط من أجل الوصول إلى المرحلة التالية، حتى أنه يصعب اقتطاع جزء من وقت العمل ليتم التدريب فيه وتطبيق ما يتم تعلمه.

وإذا تم الاستعانة بمدرّبين من الخارج لإدارة ورش العمل فمن الضروري البحث عن وسائل للتأكد من التواصل والاستمرارية فى التدريب وعدم انقطاعه نظراً لظروف سفر المدرّبين، فمثلاً عند تدريب مَنْ يقوموا بكتابة المواد التعليمية يجب أن يتبعها تقديم تعليقات على المواد التى أنتجوها، وحلول لمشكلات جديدة يواجهونها فى محاولتهم تطبيق ما درسوه فى ورش العمل.

أما العنصر الثالث لتخفيف حدة المعوقات فهو الاتصالات. وعادة ما يدور الحديث فى نظم التعلم من بُعد حول عزلة المتعلم إلا أن هذه العزلة لا تقتصر على المتعلم فقط بل إن هيئة العاملين بالنظام قد تكون أيضاً فى عزلة، فمُعد المقرر يظل بمفرده أيام وأسابيع ليعد المادة التعليمية، حيث يحدد الأهداف وأفضل طرق الاتصال بالمتعلم وما إلى ذلك، وكذلك يعمل المعلمون والمرشدون بمفردهم بعيداً عن معدى

المقرر، ومن ثم فالهيئة العاملة ذاتها تحتاج إلى مساندة كما هو الحال بالنسبة للطلاب. وتوجد طرق عديدة لتوفير اتصالات جيدة بينهم مثل تقديم مستندات ووثائق تتضمن وصف البرنامج ومواد المقرر وكل ما يحتاجون إلى معرفته، وكذلك تقديم أدلة مطبوعة توضح لهم أدوارهم وتشجعهم على الحصول على خبرة ترتبط بالأدوار الأخرى عندما يكون ذلك ممكناً، وعقد لقاءات دورية منتظمة للتقويم وتقديم تغذية راجعة لهم تساعدهم على مقارنة خبراتهم مع زملاءهم، ومشاركة العاملين في اجتماعات فريق إعداد المقرر من معلمين ومرشدين ومتخصصي وسائط، بل وحتى العاملين في أقسام السكرتارية وغير ذلك من وسائل أخرى تعزز الاتصال. ويستطيع المتعلم (المشارك في البرنامج) أن يحدد أنسبها في الاستخدام بالنسبة للنظام الذي يعمل به.

سادساً : التعلم المفتوح وتطوير تفكير المتعلمين :

يتيح التعلم المفتوح فرصاً متعددة أمام المتعلمين لأداء وممارسة أنشطة مختلفة تقوم، على أساس مراجعة وتأمل أفكارهم الشخصية، وآراء أقرانهم الآخرين، وبذلك يستطيع كل متعلم على حدة أن يكون سجلاً شخصياً لمكتشفاته، يحقق فيه: (١) تسجيل أفكاره ومشاعره حول موضوع دراسته، (٢) تدوين ملاحظاته حول مضمون ما يمكن استخلاصه من الدراسة النظرية، ومن العمل الميداني، (٣) تطوير أفكاره، وتنمية شخصيته، وتحديد احتياجاته، (٤) التعمق في دراسة بعض الموضوعات ذات الأهمية الخاصة، وبذل الجهد الذي يتناسب مع قيمتها العلمية، والذي يساعد على فهم تفصيلاتها الدقيقة، (٥) ربط الخبرات الجديدة بالخبرات السابقة، وصهرهما معاً في بوتقة واحدة لتكوين مزيج من الخبرات يساعد على فهم الخبرات المستقبلية المتوقعة، (٦) إضافة رؤية شخصية للموضوع الدراسي، في ضوء منهجية تتبع التحليل والنقد، وبذلك يمكن فهم التغيرات المستمرة في ذلك الموضوع، (٧) وضع أهداف تعليمية تعليمية جديدة، ومعرفة هوية وشخصية المتعلمين الجدد ممن يتم التعامل معهم، (٨) التمكن من التكنولوجيا المستحدثة التي تساعد في دراسة المشكلات الجديدة، (٩) تحقيق أقصى استفادة ممكنة من النشاط المكتبي الذي يقوم على أساس استخدام المواد التعليمية المنشورة من كتب، وصحف، وأشرطة تسجيل وفيديو، ودراسات وبحوث علمية، (١٠) التفاعل مع العمل الميداني من خلال الاحتكاك المباشر مع أفراد آخرين للحصول على استجابات ذات علاقات خاصة بموضوع الدراسة، ويصعب الحصول عليها من المواد المكتوبة، (١١) التعرف على الأنظمة المختلفة للعمل الميداني وورش العمل للاستفادة

من الخبرات العديدة والمتنوعة، التي تتحقق من الالتقاء بقطاع عريض بالمتعلمين والعاملين في تلك الأنظمة .

وتسهم المرودات السابقة التي تتحقق من خلال التعلم المفتوح، في تطوير تفكير المتعلمين، وذلك يظهر واضحاً في التجليات التالية:

(١) التفكير في الأساليب التي تساعد على توافر أدوات التعليم اللازمة لتحقيق مستهدفات التعلم المفتوح، وذلك يستوجب توجيه المتعلم لتفكيره من أجل التحديد الأمثل للوسائط المطلوبة، عن طريق مجموعة الإجراءات:

- دراسة مجموعة كبيرة من وسائط التعلم .
- وضع معايير لاختيار الوسائط المطلوبة في ضوء فاعليتها وتكلفتها .
- وضع التوجيهات والإرشادات لكيفية استخدام الوسائط التي يتم اختيارها، لمصادر الحصول عليها .

(٢) التفكير في تفعيل الممارسة العملية من خلال المستحدثات التقنية، مثل: الفيديو والكمبيوتر والإنترنت، وذلك يتطلب تفعيل آليات المتعلم الذهنية ليستخدم المتعلم حواسه بوعي وذكاء، وألا يشتت تفكيره بالشكل وإنما يوجهه نحو المضمون؛ بمعنى يهتم بمضمون الرسائل العلمية التي تنقلها تلك التقنيات . وأن يدرك المتعلم أنه لا يفكر فقط في تلك الرسائل من خلال عقله فقط، وإنما يفكر فيها، أيضاً، من خلال أحاسيسه وجدانه .

(٣) التفكير في رفع مستوى كفاية وكفاءة أساليب التقويم التي يمكن استخدامها في التعلم المفتوح، بشرط أن يتحقق ذلك من خلال العمل المشترك بين المعلم والمتعلم . ويسهم هذا الإجراء في تطوير تفكير المتعلم، لأنه يدرك أن الهدف لا يقتصر فقط على تقويم الممارسة والتطبيق والأداء في البرنامج الذي يتعلمه، وإنما يجب أيضاً أن يقدم التقويم توجيهاً ليستطيع المتعلم أن يفكر في:

- البرامج الحالية والبرامج المستقبلية .
- برامج التنمية المهنية للعاملين بالبرامج، على أساس أن التنمية "هي حصيلة كل ما يخطط له ويتم تنفيذه بأسلوب علمي على نطاق الإنسان والمجتمع والبيئة، مما يعتبر مجالاً للنماء والكثرة واستبدال الحال بما هو أفضل" .

- امتداد آثار التقويم، إذ إنها لا تقتصر على المتعلم فقط، ولكنها تشمل المنظمة أو الجهة أو الهيئة أو المؤسسة المسؤولة عن التعلم المفتوح، وقد تمتد تلك الآثار لتطول جهات مجتمعية أخرى.

ويمكن تحديد المستفيدين من التعلم المفتوح في ثلاث فئات:

- المتعلمون كأفراد.
- أصحاب العمل.
- مقدموا البرامج.

ويمكن للمتعمّل تطوير تفكيره عندما يتحقّق من الفوائد التي يجنيها أو تعود عليه من التعلم المفتوح، إذ يستطيع تفعيل آلياته الذهنية نحو الأفضل عندما يحدّد ما يرغب في تعلمه بأسلوب مرّن، وفي الوقت والمكان المناسبين له. أيضاً، ما يؤكد إمكانية تطوير تفكير المتعلم من خلال التعلم المفتوح، أن هذا النمط من التعلم، يسهم في تحقيق الآتي:

- يتيح الفرصة أمام المتعلم للتعلم وفقاً لسرعته الخاصة، دون الاضطرار للتواجد ضمن مجموعة.
- يقدم للمتعمّل فرصاً متعدّدة للمعلم، حيث تكون أمامه الحرية والفرصة الكاملة لاختيار المحتوى الذي يراه مناسباً.
- يتيح تدريساً من نوعية أفضل، وفرصاً لاستخدام وسائط تعليمية تتناسب مع مختلف تفضيلات المتعلم.
- يساعد على تفريد التعليم من خلال هيئة التدريس التي تعمل على تقييم الدعم والمساندة لكل متعلم على حدة، وبذلك تتم الاستجابة لحاجات واهتمامات كل متعلم بشكل فردي.
- استخدام أساليب تقويم معاصرة للحكم على جميع جوانب شخصية المتعلم.

(٤) من خلال التعلم المفتوح، يستطيع المتعلم أن يفكر في:

- * الدور الذي يجب أن يقوم به.
- * تقرير الحاجات التي يجب أن يؤديها.
- * كيفية أداء تلك الحاجات بكفاءة وفاعلية.

- * توزيع المسؤوليات فيما يخص المتعلم نفسه، وفيما يخص المعلم والمتعلمين الآخرين.
- * التغيير فى آليات التدريس والتعلم، وما يترتب على ذلك من نقل السلطة فى هذه العملية من المعلم إلى المتعلم.
- * التغيير الجذرى والشامل فى اتجاهات المتعلم، وفى المهارات الجديدة التى يجب أن يكتسبها ويتقنها المتعلم.
- * تحديد القوى الدافعة والقوى المعوقة بالنسبة للتعلم المفتوح من أجل:
 - رسم استراتيجيات لتدعيم القوى الدافعة.
 - إضعاف القوى المعارضة وإزالة المعوقات.
- * الاستفادة من الاستشارات التى يقدمها المعلم، والتى تساعد على تغيير اتجاهات المتعلم نحو نظام التعلم المفتوح، وتعريفه بفوائده، وإقناعه بمزاياه.
- (5) من خلال إدارة نظم التعلم المفتوح التى تجسد مبادئ الانفتاح، وتقوم على أساس إيجاد جو صحى من الثقة والتعاون والدعم، بما يجعل المتعلم واعياً بأى قرار أو معلومات تؤثر عليه، وبما يؤكد ثقته من مساندة الآخرين له، يستطيع المتعلم توظيف قدراته وتفعيل إبداعاته فى التفكير فى:
 - * غايات التعليم المفتوح وأهدافه ومقاصده.
 - * نوعية المتعلمين واحتياجاتهم الدراسية والحياتية، ومدى تآلف ومواكبة تلك الاحتياجات مع احتياجات المتعلم الشخصية.
 - * الإسهام فى تطوير برنامج التعلم من خلال إبداء الرأى فى أهدافه ومحتواه ونوعية الوسائط وأساليب التقويم.
 - * تحديد الدعم المادى والمساندة البشرية التى يحتاج إليها المتعلم فى دراسته.
 - * تحديد المصادر البشرية التى تقدم المساعدة للمتعلم، والأساليب التى يتبعونها فى تقديم تلك المساعدة.
 - * معرفة حدود الأدوار والمهام المتضمنة فى عمليات إدارة التعلم المفتوح، وفى إدارة برامجه وعمليات تشغيله اليومية، ومسئوليات جميع أطرافه.
- (6) من خلال التفاعل مع التعلم المفتوح، يستطيع المتعلم التفكير فى الأساليب التى تؤكد تفوقه ونبوغه وإبداعه، والتى تسهم فى:

- * التفوق التحصيلي في المواد الدراسية .
 - * التمكن من المهارات العملية، مثل: التربية البدنية والفنون والأشغال اليدوية .
 - * التنوع في الميول والاهتمامات والخصائص الانفعالية والاجتماعية .
 - * إثارة الدوافع التي تفجر الطاقات الكامنة عند المتعلم، والتي تسهم في تحقيق الرغبة في التمكن المعرفي والتوافق الانفعالي .
 - * الاستمرار في التفوق الدراسي، وفي النجاح المهني بعد التخرج، وفي الحياة الاجتماعية بمعناها الواسع والعريض .
 - * القدرة العالية على سرعة الفهم وقوة الذاكرة ودقة الملاحظة واستقلال الفكر والنقطة في القدرات الذاتية والمثابرة في العمل .
 - * قوة الإرادة والتخطيط لتحقيق أهداف بعينها على المستوى القريب، وعلى المدى البعيد .
 - * إمكانية تطبيق التفكير المنطومي المتشعب، ورفض التفكير الأحادي الموجه على أساس أن القضية إما صحيحة أو خاطئة فقط .
 - * القدرة على تحقيق النجاح، أو على اكتشاف الأخطاء وتجاوزها عن طريق وضع الحلول الصحيحة .
 - * الاتسام بمقومات إنسانية تتسم بخصائص تتسم بالشرف والنبيل والتعاون . . . إلخ .
- قلنا من قبل أن المتعلم عليه أن يتعامل مع الحياة بمفهومها الواسع والشامل من خلال التعلم المفتوح، وحتى يستطيع تحقيق هذا الهدف الصعب والشائك، يجب:
- عدم الخوف من التعبير عن مشاعره وأحاسيسه ورغباته الشخصية .
 - التكامل الوجداني والنفسي - شخصي مع أي ممارسة معرفية .
 - الحذر والانفتاح معاً للعلاقات بين الحقائق والبيانات ومعطيات الواقع .
 - النقد الموضوعي للأحوال الاجتماعية والثقافية والاقتصادية لبيئة التعلم .
 - المعرفة ذاتها ليست فقط مجرد معلومات وبيانات وإحصاءات تملؤها العقلانية، وإنما - بجانب ذلك - فإنها تعبر عن معاني الحياة والمشاعر . وحتى يستطيع المتعلم أن يقابل - بفهم وإدراك كاملين - ما ينبغي أن يكون، يجب عليه تجديد فكره دوماً، حتى يستطيع أن يحقق أحلامه الاستراتيجية بأساليب تكتيكية مناسبة،

آخذاً فى اعتباره أن الشئ المستحيل هو ألا يفعل شيئاً، وأن الشئ المرفوض أن يفعل شيئاً قليلاً تجاه ما يجب أن يفعله.

وبعامة، عندما ينجح المتعلم فى تطوير تفكيره، فإنه بذلك يؤكد أساسيات التعلم المفتوح ويقر بمنطقاته، لأنه:

- يدرك أهمية الخيال فى الحياة، فيطلق العنان لخياله بشكل منظم، حتى لا يتحول الخيال إلى مجرد أحلام يقظة.

- يؤكد أهمية الفضول العاقل وحب الاستطلاع المتزن لأنهما أساسان مهمان فى تحقيق الأعمال الإبداعية.

-- ينمى روح المغامرة العاقلة والمسئولة، والتي دونها لا يكون للحياة مغزى أو معنى.

أيضاً ذكرنا ونوهنا - فى الحديث السابق - إلى أهمية أن يجدد المتعلم فكره ليوكب ظروف العصر ومتغيراته. وفلسفة أسلوب التعلم المفتوح، لا تقوم تقريباً، ولا تعتمد فى أغلب الأحيان على إعداد البرامج الدراسية على أساس مواد دراسية سابقة التجهيز أو معدة سلفاً، ليتعلمها طلاب معينين فى أماكن محددة، لذا يستطيع المتعلم أن يتجه إلى أى مصدر لينهل منه ما يشاء من معرفة، وبالكيفية أو الأسلوب الذى يريده، وفى أى وقت يراه مناسباً له، ولذلك فإن التعلم المفتوح يمثل نمطاً مثالياً يمكن عن طريقه تحقيق التعليم الذى يتوافق مع منطلقات الزمان والمكان، وبذلك يمكن الزعم بأن التعلم المفتوح والفكر المتجدد متلازمان بدرجة كبيرة وترابطهما وشائج نسب قوية متينة الأساس. ولكن المعضلة الحقيقية تتمثل فى شيخوخة الفكر العربى، والتي أصابت ضمن من أصابهم المتعلمين أنفسهم مهما كان الأسلوب الذى يتعلمون على أساسه، وهذه الشيخوخة - للأسف - تحول دون لحاق المتعلمين بموجة التحديث.

والسؤال: هل بالفعل يعانى فكرنا من الشيخوخة التى تقف عقبة كؤود أمام الانطلاق أمام الآفاق الأوسع والأرحب بعامة، وأمام اللحاق بركب الحضارة بالنسبة للمتعلمين بخاصة؟!.

إننا نجد إجابة كافية ووافية عن السؤال السابق فى مقال "منير نعيمة" التالى الذى نشر فى جريدة الأهرام تحت عنوان "شيخوخة الفكر العربى وموجة التحديث"، بتاريخ ٢٠/٩/٢٠٠٥:

فى حديث تليفزيونى لحسنين هيكل أشار إلى شيخوخة الفكر التى لم تعد تتوافق مع الظروف الحالية والمتغيرات التى استجذت على الساحة وهذا ما شد انتباهى من جهة ومن جهة ثانية حين كان يردد البعض بالعودة إلى عصر الطربوش، ربما المقصود ما يحتويه ما تحت الطربوش من فكر وآراء وربطت بين هذا وهذا وبإدلتى الملحمة لكتابة هذه المقالة عن شيخوخة الفكر التى أصابت مجتمعاتنا بعدم القدرة على التواصل والاتصال للاستقبال والاستيعاب والمشاركة فيما يحدث فى العالم من تحول عبر التغير والمغايرة فى مقاييس ومعايير العلوم والمستجدات التى يبدو قلعت الطربوش منذ زمن عند هؤلاء الذين يرتدونه فكرا ورأيا وعقلا هو ذلك الفكر الذى استشاخ وشاخ زمانه الذى أشار إليه حسنين هيكل فى حديثه التليفزيونى شيخوخة الفكر .

لاشك أن الزمن يسير ولا يعترف لا بشيخوخة ولا بكهولة وليس هناك من يستطيع إيقافه عن سيره المتصاعد بعباءاته المتدفقة بالتزايد يوما عن يوم، لاشك أن عقل الإنسان الجبار فى كل مطلع يوم يكتشف شيئا جديدا يعود بالمنافع على البشرية جمعاء، صدق كارل ماركس حين قال الإنسان أئمن رأسمال فى العالم لأنه هو الذى يصعد بنا إلى كل ما يودى إلى الخدمة البشرية من كل جوانبها، ولاشك أن هناك أفكارا فى بلادنا العربية قد شاخت وبرزت شيخوختها أمام موجة التحديث والعولمة التى فرضت مفاهيمها ومعطياتها على العالم أجمع وباتت محورا إيجابيا لكل من يريد أن يغرف من إناء عطاءاتها المتعددة الجوانب فى جميع منافع حقول العلوم والمعرفة . ولا ريب أن هناك الكثير ممن أقدم على قبول هذه العولمة وإفرازاتها فى منهج حياتهم العلمية والثقافية عبر التحول والانتقال مما كانوا عليه إلى ما وصلوا إليه من طور وازدهار مما جعلهم ينتهجون المعلوماتية والعلوماتية عبر الوصل والتواصل والاتصال فى شتى مفاهيم التحديث والتغير والمغايرة فى ممارستهم الفكرية والعملية التى عمست مستجداتها وتبوتقت مفاهيمها وتبلورت على الكرة الأرضية قاطبة دون أن تستثنى أحدا أو تضع حدودا أو سدودا بين دولة وأخرى لاعتبارها أممية لكل من يريد أن يقتنى إناء معطياتها العلمية والفكرية التى تتصاعد يوما بعد يوم وتنبوتق فى محورية منهجية فرضت إفرازاتها على مجتمعات العالم سواء شاعت أو أبت . وبهذه الموجة الجديدة من هذا التسلق المتصاعد من الفكر الجديد والعلم الحديث الذى رفض كل ما كان قبله حتى لا يصاب بالشيخوخة التى أصابت الدول النامية مما جعلها عاجزة عن استيعاب الجديد مما يردنا إلى الوراء نعيش حقبا لا تتفق ولا تلتقى لما يهدف إليه الإنسان الجديد إلى المعاصرة والعصور مع ميكنة المستجدات التى أحدثت دويا فى المتغيرات والتغير

والتحول، واختزلت الزهـن بسرعة فائقة وجعلت بآلياتها وتقنياتها ما كان يتحقق فى خمسين سنة تستطيع البشرية اليوم تحقيقه فى عشر سنوات بفضل تحديث ميكنة المستجدات .

ولا شك أن هذه العقول المبدعة التى أفرزتها العلوم فى الآونة الأخيرة تواكب مع طور التحديث والمستجدات، وبالتالى حققت ازدهارا ملحوظا فى حقول العلوم والمعرفة والفكر، مما أدى إلى عزلنا عن العالم الحديث لأننا لم نستجب لهذا الفيض المعلوماتى والعلمائى، رغم أننا فى سن الشباب . ولكن من المؤسف توارثنا شيخوخة الفكر التى باتت تحتاج ترميما حتى تستطيع أن تستقبل وتستوعب ما يحدث على الساحة العالمية من إنجازات فى مجرى العلوم والفكر والمعرفة .

هذا من حيث الاستيعاب فقط، أما من حيث الابتكار والإبداع لتحقيق الذات فأمر يتطلب إنقلابا جنريا فى مفاهيم التعليم الأساسى الموروثة سواء كان الجامعى أو ما قبل الجامعى . إن بعض المقررات الدراسية التى عفى عليها الدهر وشرب لم تعد صالحة لفكر اليوم؛ لأنها شاخت وشاخ معها زمانها، ولم تعد تتوافق وتلتقى مع مستجدات اليوم، ناهيك عن القوانين التى شرعت فى الثلاثينيات والأربعينيات فى عصر الطربوش ومازالت تأثيراتها قائمة حتى وقتنا هذا، تؤكد أنه لا مكان لنا فى هذا العوم المتدفق بعلومه ومفاهيمه . فالعجز الفكرى المستشيخ يبين أن أفكارنا قد إنصرم زمانها، ولم يعد لها وجود فى عالمنا الذى نعيشه الآن .

لاشك أن موجة التحديث قد أزالت حواجز الفكر منذ بدء معارف العولمة وفتحت الأبواب على مصراعيها لكل من يريد استقبالها، فلم يعد هناك أية سدود للفكر والمعرفة والعلوم؛ لأنها قد ساحت على بعضها البعض كالهواء، لا هوية لها تجنسها ولا حدود تفرقها ولا عرقية تصنفها . وليس هناك من يصدها سوى من استشاخت أفكاره وأصيبت بالعجز وعدم القدرة على الاستيعاب، لأنها أصيبت بالمرض المزمن، وهو شيخوخة الفكر العربى التى تعوقنا عن التقدم والتطور وتجربنا إلى الوراء وتعود بنا إلى عصر الطربوش .

والحقيقة، أن تجديد الفكر يمثل مرتكزا أساسيا يستند عليه الإنسان فى تحقيق إنجازاته الرائعة، فنون التفكير الجديد والمتجدد، يصعب تحديد إجابات شافية ووافية عن طبيعة العلاقة بين التعليم والتعلم من خلال أسلوب التعلم المفتوح . وفى حالة غياب تلك الإجابات، يمكن بسهولة شديدة أن يتحول التعلم المفتوح إلى أى نظير آخر يتسم

بالمنطية التقليدية. وعليه، فإن تطوير تفكير المتعلم يجعله يعرف تماماً الطريقة أو الكيفية التي تحدث بها عملية التعليم ما تنتج من تعلم، وما يرتبط بها من ممارسة السلطة والحرية المسئولتين، إلى جانب ما يجب أن يدركه من الفضائل التي يجب أن يتحلى بها شخصياً، وكذلك يؤكد لنفسه أهمية اتساق ممارساته التعليمية بين ما يقوله وما يفعله، بما يسهم في تجبير طاقاته الابتكارية إلى أقصى حد ممكن.

والسؤال : ما المقصود بالابتكار؟

يجيب "حامد ظاهر" عن السؤال السابق في مقاله تحت عنوان "الابتكار وحائط الصد"، وقد نُشر في جريدة الأهرام، بتاريخ ٢٠٠٥/٩/١٨، فيقول:

الابتكار بصفة عامة هو التوصل إلى فكرة جديدة أو اكتشاف حل غير معروف لمشكلة قائمة، وهو يقف على النقيض تماماً من التقليد والمحاكاة واتباع الأساليب المتوارثة التي تجرى كلها دون تفكير، أو إعادة تفكير أو مراجعة نقدية، وقد حدد علماء الاجتماع للتقليد قوانين خاصة، وبينوا الظروف التي يرقد فيها ويستقر أحياناً على مدى مئات وأحياناً آلاف السنين. ومن المقرر أن للتقليد سطوة وسلطاناً يصعب اختراقهما، كما أن لديه مقاومة هائلة تقف في وجه أى تجديد أو تغيير في الأنماط والمعايير وكذلك في الأفكار السائدة. ومن المؤكد أن وراء التقليد كتائب من المستقيدين، الذين ينعمون ببعض المزايا، بينما يحرمون منها الغالبية العظمى من أفراد المجتمع. لذلك فلن الابتكار عندما يظهر تتم على الفور مهاجمته من تلك الكتائب بمختلف الأسلحة، لكي ينزوى في موضعه، أو يسكت تماماً عن الكلام.

والذي يتأمل جيداً الرسائل السماوية يجدها في حقيقتها أنواعاً من الابتكار والتجديد، كانت تجيء في بيئة تقليدية متمسكة أشد التمسك بموروثاتها القديمة، وغير مستعدة على الإطلاق للتنازل عنها. ومع ذلك فإن الصراع الذي خاضه الأنبياء ضد مقاومة مجتمعاتهم التقليدية هو الذي أدى في النهاية إلى انتصار دعواتهم، التي كانت تمثل أساساً في تحرير إرادة الإنسان من عبوديته للمادة، ورفع رأسه للاستقاء من القيم الروحية العليا. وفي مجال العلوم، لا يقل الصراع بين الابتكار والتقليد عما هو عليه الحال في مجال الأديان، والذي يتتبع تاريخ العلوم والمذاهب الفكرية يجده مليئاً بالنماذج والأمثلة التي تؤكد شراسة المعركة بين الابتكار والتقليد. ولم تكن مقاومة للتقليد تتوقف فقط على إسكات الأفكار وإخماد شعلة التجديد، وإنما كانت تمتد في كثير من الأحيان إلى قتل صاحبها، وأحياناً إحراقه بالنار. وليس حالة سقراط في أثينا سوى مثال واضح

على ذلك، فقد راح يقول لمعاصريه: إن ما لديكم من أفكار مسبقة عن المفاهيم الكبرى فى الحياة ليست إلا مصكوكات قديمة، ولكنها عند الفحص والتحليل تسقط متهالكة، فما كان منهم إلا أن دبروا له المكائد، واتهموه بإفساد عقول الشباب، وحبسوه حتى تم إعدامه بالسّم فى عام ٣٩٩ قبل ميلاد المسيح. وعندما ظهر ابن رشد (ت ١١٩٨هـ) قال لمعاصريه من علماء الكلام الذين كانوا قد أفسدوا صفاء العقيدة الإسلامية الصحيحة: يا قوم، إن هناك فرقا بين عالم الغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى، وبين عالم الشهادة الذى هو متاح لأى عقل بشرى. ولذلك غضبوا عليه، ودبروا له المكائد، حتى أمر خليفة ذلك الزمان بإحراق كتبه، ونفيه إلى إحدى القرى المهجورة.

وهكذا فإن قوانين التقليد مهما تكن قوية ومتماسكة فإنها لا تلبث أن تهتز وتسقط أمام قانون الابتكار الذى يظل يعمل فى العقول حتى تترك أخيراً أنه هو القانون الذى يعمل لصالحها. وإذا كانت العصور القديمة قد أتاحت للتقليد سطوة وسلطانا قاهرين، فإن العصر الحديث الذى أصبحت تتوالى ابتكاراته فى كل المجالات قد أتاح للعقل الإنسانى الكثير من آفاق الحرية، كما فتح الإعلام المعاصر الكثير من النوافذ لأى فكرة جديدة ومبتكرة. لكن الملاحظ أن حائط الصد التقليدى أمام أفكار التجديد العلمى إذا كان قد تهاوى، فما زال الوضع مختلفاً إلى حد كبير فى مجال الأفكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ويلفت ما جاء فى المقال السابق انتباهنا بشدة إلى خطورة التدايعات التالية:

- التفكير الرتيب يحقق استنتاجات عقيمة تعتمد التقليد منهاجاً، ويؤدى إلى كوارث حقيقية، لعل أبسطها وأقلها ضرراً وخطورة اتسام الأعمال بالمنطية وعدم الابتكارية والرتابة والتخلف.
- إذا حدثت فجوة بين التفكير والابتكار، تسكت الأفكار وتجمد شعلة التجديد، ويظل الحال على ما عليه دون تغير أو تغيير، وقد يصل إلى حد التكلس والتقوقع حول المصكوكات القديمة المتهالكة فكرياً.
- التفكير يقود إلى الابتكار، ولا يمكن تحقيق الابتكار دون إمتلاك ملكات التفكير الصحيح، وعليه فإنه فى غياب التفكير الابتكارى قد يغيب عالم الشهادة الذى يجب أن يكون متاحاً لأى عقل بشرى.
- عندما تكون قوانين التقليد قوية ومتماسكة، يكون من المشكوك فيه ظهور أعمال ابتكارية، بسبب تغييب عمل العقل، والحد من آفاق الحرية وغلق نوافذها.

- إذا احتجب التجديد العلمي، وتخلفت الأفكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فذلك دالة قاطعة على جمود التفكير الإنساني، وعجزه عن تحقيق ابتكارات على المستويين: المعنوي والمادى، على حد سواء، وذلك يؤثر سلباً على تطوير التعليم وتحديثه.

وبالنسبة للنقطة الأخيرة، يؤكد تطوير تفكير المتعلم أن العامل الأقوى والأبقى أثراً في عملية تعلمه عن طريق التعلم المفتوح، هو قدرته على مواجهة التناقض بين الأقوال والأفعال، وعلى تحقيق الاتساق الكامل الذى يوجه قوة الآراء التأثيرية نحو معايشة الواقع، وبذلك تتسم علاقة المتعلم مع الآخرين بالثقة والطمأنينة، وتقوم ممارساته الحياتية اليومية على أساس الإلتزام المستمر بالعدل، والحرية، والحقوق الفردية، والدفاع عن الأضعف عندما يكون ضحية لاستغلال الأقوى. إن التعلم المفتوح له دوره المؤثر فى تفعيل تفكير المتعلم، لأنه يفتح الباب على مصراعية أمام المتعلم بالنسبة للأفكار الجديدة والمتجددة، وبالنسبة للمستحدثات التقنية التى غزت جميع مجالات الحياة، وبالنسبة للنظريات العلمية التى لها صداها المباشر فى تغيير العديد من الوقائع والأحداث، ولذا يجب أن يكون المتعلم على وعى كامل بقوة وجمال النضال الأخلاقى، ليدرك أن الأخلاقيات والجمال يرتبطان معاً ارتباطاً وثيقاً.

وعلى الرغم من أن التعلم المفتوح هو أحد أنماط التعلم الذاتى، حيث ينزوى فى الظل تقريباً دور المعلم، فإن:

- * التدخل الديمقراطى للمعلم فى بعض الحالات لن يمثل - أبداً - سيطرة من جانبه على المتعلم، وإنما يسهم فى تحقيق تعليم تسمى متطور، يحقق من خلاله المتعلم أقصى قابلياته للتعلم.
- * العلاقة بين المعلم والمتعلم تقوم على الاحترام المتبادل، من منطلق إدراك المعلم لأحوال المتعلم الواقعية داخل مجتمعه، والظروف والأحوال التى تشكل حياة المتعلم.
- * تعرف المعلم طريقة تفكير المتعلم ليس عملية سهلة، ورغم هذا، ليست هناك قضايا أو قيم لا يستطيع المعلم التحدث فيها إلى المتعلم، وبذلك يستطيع أن يتلمس للمعلم بدرجة كبيرة أفكار المتعلم.

* يتأثر الحوار بين المعلم والمتعلم بالظروف الاجتماعية والثقافية والتاريخية للسياق المجتمعي، الذى يتحدثان فيه، كما أنه يتشكل من خلال ثقافة الطبقة وحقائق أوضاعها، التى ينتمى إليها كل من المعلم والمتعلم.

وعلى جانب آخر، يمكن الزعم بأن العلاقة بين التعلم المفتوح وتطوير التفكير علاقة تبادلية التأثير، تؤكد أهمية ثقافة الوضوح والحكمة والتنظيم فى عمل الأشياء واستخدام النظام والضبط فى الدراسة، هذا إلى جانب مصداقية المتعلم فى دراسته، والمثابرة فى أداء العمل، والقوة فى التعلم التعاونى. عندما يتحقق ذلك، يمكننا القول بدرجة كبيرة من الثقة بأن تفكير المتعلم قد تطور نحو الأفضل، وهذا التطور يكشف القناع الخادع عن أيديولوجية خطاب التحديث، والتى تكمن وراء نوع من الليبرالية الحديثة: وهى تلك الأيديولوجية التى تتحدث عن اللحظات الحالية فى التاريخ، وتحاول إقناعنا بأن الحياة لن تكون إلا كما هى فى الواقع الحالى، وأن القادرين هم الذين يقومون بتنظيم المجتمع الذى ينتجونه، كما تزعم بأن الذين هم أقل قدرة ليس لهم إلا مجرد البقاء.

ويقول أنصار تلك الليبرالية إن الحديث عن الأحلام، واليوتوبيا أو التغيير الجذرى إنما يعوق طريقة العمل الشاق لأولئك المنتجين الحقيقيين. وواجبنا أن نساعدهم لكي يعملوا فى سلام دون حدوث مشكلات قد يسببها خطاب الأحلام، إذ أنه فى يوم ما سوف يتبقى كثيراً، مما يمكن توزيعه".

إذاً، بتطور تفكير المتعلم، يستطيع كشف القناع الزائف عن أيديولوجية خطاب التحديث، وفق المنهجية السابقة، ويستطيع - فى الوقت نفسه - كشف زيف ذلك الخطاب غير المقبول والذى يقاوم الأمل باليوتوبيا والأحلام. إن عالم اليوم الجديد يؤكد موت التحزب، ويبشر بمولد الراديكالية. فالذين يزعمون باسم الديمقراطية بأنهم يعملون الحق - حقاً لا يمكن نقضه أو دحضه - لا يمكن أن ينتموا إلى عالمنا الجديد.

وبتطوير المتعلم تفكيره، فإنه:

- * يعلن عن مواقفه دون صعوبة.
- * يواجه العناصر الجديدة فى التغيير من خلال مواقفه ائمهنة.
- * يوضح مواقفه ويجسدها موضوعياً لتكون أكثر فاعلية.
- * يدرك أن تغيير مواقفه فى بعض الأحيان ليس مشكلة مستعصية، وإنما هى مسألة شرعية.

* فى حالة تغيير بعض المواقف، فمن الأفضل أن يعلن عن الأسباب والعوامل التى أدت إلى تغييرها .

والقضية الخطيرة، تتمثل فى استخدام المتعلم لتفكيره فى العمل، ليس حرصاً على أداء العمل بطريقة صحيحة ومخلصة، وإنما يقوم بذلك بدافع التطلع والتيقن، لأنه عندما يفشل المتعلم فى تحقيق يقينية العمل الذى يتحمل مسؤوليته، قد يحس بالإهانة، وهو إحساس ناتج عن المغالاة فى تقييم ذاته، دون اعتراف منه بأنه إنسان معرض للخطأ، ولن يصل أبداً إلى درجة الكمال والعظمة .

وأيضاً، قد تكون العلاقة بين المتعلم نفسه وما يتعلمه من مقررات ومواد دراسية علاقة معقدة وصعبة، لأنها علاقة تدور أساساً حول ما يجب أن يفكر فيه المتعلم دائماً . ومع ذلك فإنه من السديد أن تكون عملية التقييم جزءاً من عملية تعلم المتعلم . ويمكن إجراء عملية التقييم الذاتى من خلال التحليل النقدي للغة والممارسات التى يقوم بها المتعلم، وعن طريق تسجيل الحقائق والاتجاهات المرتبطة بها . ومن جهة التسجيل، فهو أمر يودى بالمتعلم أن يلاحظ، وأن يقارن، وأن يختار، وأن يقوم بتقييم العلاقات بين الحقائق والأشياء، بشرط أن يتم التسجيل بأمانة ودقة متاهيتين، سواء أكانت النتائج بشكل إيجابى أم سلبى، وبذلك تنحو عملية التسجيل نحو الإبداعية المنشودة فى عملية التعلم .

أيضاً، على الرغم من صعوبة تفاعل المتعلم مع المواد الدراسية التى يتعلمها من خلال التعلم المفتوح، فإنه يؤمن إيماناً شبه كامل بأهمية أن يسيطر تماماً على جميع دقائق وتفصيلات تلك المواد الدراسية، بشرط أن لا تحرمه الدراسة ذاتها من التمتع ببهجة الحياة، وألا تكون قيداً نحو انطلاقه الحر المسئول، ولذلك يستخدم المتعلم ألياقه الذهنية وقدراته العقلية بأقصى فاعلية ممكنة لتحقيق الاتزان والتوازن بين ما يجب أن يتعلمه وما يجب أن يتمتع به .

وتجدر الإشارة إلى أن المتعلم يتعلم بكامل إرادته ومطلق حريته من خلال التعلم المفتوح، حتى وكان الأمر يبدو بلا ضابط أو حاكم، أو يظهر وكأنه يفتقر إلى السلطة الحاكمة التى تحدد مساره . ولكن الحقيقة تخالف ذلك تماماً، لأن التعليم فى ذاته - مهما كانت أنماط التعلم المتبعة - عملية سياسية بالدرجة الأولى، وليست عملية محايدة تماماً، وعلى المعلم والمتعلم معاً أن يمارسوها، وأن يعيشوا معها وفق مقضياتها وتجلياتها وتداعياتها، سواء أكانت ذات صبغة ديمقراطية تقدمية، أو تظهر فى صفتها

السلطوية الرجعية التقليدية، أو تكون وليدة خياراتها العفوية غير الناقدة. والواقع أن المناخ التعليمى التعلّمى الذى لا تحكمه ضوابط وقوانين وأحكام رادعة قد يودى إلى تعزيز التوجهات السلطوية. ومن ناحية أخرى، فإن هذا التجاوز والتسيب يتجاهلان تنمية الشخصية الديمقراطية للمعلم والمتعلم معاً، رغم إنهما يسعيان لتحرير أنفسهما من خلال الكفاح من أجل القيم الديمقراطية، ناهيك عن أن التجاوز والتسيب يعملان على تدريبهما ليكونا فى خدمة السلطة، فيعملان على طاعتها ويتكيفان مع أحلامها. وعلى الرغم من ضرورة رفض منهج التسلط، فإن الحاجة ماسة جداً إلى النظام، وهذه هى المعضلة الكبرى.

ولتحقيق الموازنة بين المنحنيين السابقين فى التعلّم المفتوح، يجب على المتعلم أن يخضع دوماً للتشخيص الناقد، ولكن: كيف يمكن تحقيق ذلك فى ظل التعلّم المفتوح، الذى يمثل أسلوباً من أساليب التعلّم الذاتى؟!

لا يوجه التعلّم المفتوح جل اهتمامه على المحتوى المراد تعلمه فحسب، بل يدور حول الحياة نفسها، كما أن ذلك المحتوى يهيئ مناخاً مفتوحاً وحرّاً، وذلك:

- * يسهم فى تعليم المتعلم كيف يعلم نفسه بنفسه.
- * يساعد على تطوير تفكير المتعلم وامتداده نحو قضايا الحياة ذاتها.
- * يمنح المتعلم فرصاً عديدة لممارسة التشخيص الناقد بالنسبة لما يقوم به من أعمال وممارسات.
- * يجعل المتعلم يسعى ليكون ديمقراطياً فى سلوكه وتصرفاته، دون إداء أو زيف.
- * يعيش الديمقراطية كاملة ويساعد فى نموها، وفى تأصيل مقوماتها على مستوى المجتمع.
- * يؤمن بالحدود الأخلاقية فى التعاملات الإنسانية، حتى لا تتحول الأمور إلى صور من الفوضى والعبث.
- * يستمع للآخرين، ليس على سبيل التفضل والمن، ولكن على سبيل الواجب والاحترام.
- * يرغب بجدية فى التساؤل والنقد والحوار واحترام الموضوعات العامة.
- * يرفض الانحرافات المخزية، وما تجلبه من تداعيات خطيرة وآثار مدمرة على المدى: البعيد والقريب على الاقتصاد وعلى المعايير الأخلاقية، فى الوقت نفسه.

الحقيقة، إن تطوير تفكير المتعلم نحو الأفضل، لهو من الدعائم الرئيسية التي

يمكن على أساسها بناء ديمقراطية جادة، تعمل على:

- * تغيير الهياكل والكوادر الاجتماعية الفاسدة والمفسدة.
- * تؤكد سياسات الإنتاج والتنمية الناجحة.
- * تعيد تشكيل مصادر القوة.
- * تشيع العدل بين الناس.
- * تقضى على الظلم والكسب غير المشروع للأقوياء.
- * تعمل على تصحيح الأوضاع الخاطئة.
- * ترفض التوجيهات السلطوية والعرقية.
- * تحترم آدمية الإنسان، وتحافظ على جوهر الإنسانية.
- * تؤمن بأن الأمانى لا تتحقق بالكلمات المثالية، وإنما بالعمل الجاد الدؤوب والتأمل العاقل.
- * تسعى لتقليل المسافة والمواجهة بين القول والفعل.
- * تستند إلى الحقيقة والواقع كلياً أو جزئياً من خلال العمل المستقيم والمناقشات الصريحة.